
منصور محمد سرحان
المكتبات في العصور الإسلامية
مكتبة فخراوي



المكتبات
في العصور الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبات في العصور الإسلامية

منصور محمد سرحان

مكتبة فخراوي

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

مكتبة فخراوي

البحرين ـ المنامة هاتف: ٥٥٣١٣٣ ـ ٢٣٢٨٤٩ فاكس: ٥٥٢١٨٢ ص.ب: ١٦٤٣

إهداء

إلى

جميع المسلمين

في مشارق الأرض ومغاربها

المقدمة

منذ أن أصدرت كتابي «واقع الحركة الفكرية في البحرين ١٩٤٠ - ١٩٩٠» في عام ١٩٩٣ كنت أجمع مادة كتابي هذا «المكتبات في العصور الإسلامية». واخترت هذا الموضوع بالذات كمادة بحث جديدة نظراً لقلة المصادر الموثقة التي نشرت عن المكتبات في العصور الإسلامية المختلفة. ونظراً لاتساع مفهوم العصور الإسلامية فقد حددت الفترة الزمنية التي جمعت فيها مادة بحثي حتى نهاية القرن السابع الهجري، حيث جرت في هذه القرون السبعة عمليات تأسيس المكتبات على اختلاف أنواعها، كمكتبات المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات الرئيسية التي أسسها الخلفاء العظام لتكون بمثابة مراكز ثقافية أو مكتبات عامة تنفق عليها الدولة، هذا بالإضافة إلى العديد من المكتبات الخاصة المتواجدة في منازل الأغنياء والأمراء والوزراء والأدباء وعلية القوم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرن الثالث الهجري أنجب كبار العلماء والأدباء والكتاب، كما أنجب في نفس الوقت كبار الخلفاء الذين كانت لهم نظرتهم الخاصة في رعاية العلم والعلماء. فقد برز في هذا القرن بالذات الخليفة أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون، واحب الأخير الكتب وأجل العلماء وأفسح المجال لانبعاث الفكر الحر. وكان الناس ينظرون إلى الفلسفة نوع من الخروج على الدين، وكذلك الاشتغال بأمور الكيمياء من المحرمات باعتبارها عبث شيطاني. وعندما تولى المأمون سدة الحكم أفسح المجال للعلماء والأدباء والمهندسين والأطباء والمفكرين والفلاسفة ومنحهم الحرية التامة في كتابة ما يريدون. وأدى ذلك إلى قيام النهضة الفكرية

والثقافية في العالم الإسلامي، فازدهرت الكتابة ونمت حركة التأليف والنشر وانتشرت المعامل في منازل العلماء وارتقت الفنون مما جعل بغداد حاضرة العالم المتمدن آنذاك. وتوج المأمون حركته هذه باهتمامه ببيت الحكمة في بغداد وهي أول مكتبة رئيسية عامة تقام في أرجاء العالم الإسلامي. واقتفى أثره فيما بعد مجموعة من الخلفاء المسلمين في أمصار مختلفة من البلاد الإسلامية.

وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب على محدودية صفحاته مرآة تعكس الأحداث والتطورات التي أدت إلى تأسيس المكتبات في العالم القديم بصورة محدودة ومقتضبة، والعالم الإسلامي بصورة شاملة ومركزة.

من أجل ذلك فقد وزعت محتويات الكتاب على ثمانية فصول، تناولت في الفصل الأول المكتبات في العالم القديم لإعطاء القارىء نبذة موجزة عن اهتمام الحضارات على اختلافها بالكتاب والمكتبات. وتحدثت في الفصل الثاني عن مرحلة التمهيد لبزوغ المكتبات الإسلامية، وقسمته إلى قسمين. تناولت في القسم الأول علوم وثقافة العرب قبل مجيء الإسلام متطرقاً إلى بعض العلوم التي كانت سائدة عند العرب مثل علم النجوم والأثر والعلاج والطب والشعر والخطابة زمن الجاهلية. أما القسم الثاني من الفصل الثاني فتناول علوم وثقافة العرب في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، متطرقاً إلى الآيات والأحاديث النبوية التي جاءت في فضل العلم وطلبه.

وخصص الفصل الثالث للمكتبات الرئيسية في العصور الإسلامية، وهي المكتبات التي تخصص لها الدولة ميزانية لشراء الكتب ومواد النسخ والكتابة كالورق والحبر إضافة إلى أثاث المكتبة والصرف على العاملين بها. وتناولت في هذا الفصل أهم المكتبات الرئيسية التي أسست في العالم الإسلامي وهي ثلاث مكتبات: مكتبة بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة، والمكتبة المستنصرية بقرطبة مبيناً جهود الخلفاء الذين اهتموا بأمر تلك المكتبات والطرق التي اتبعوها لتزويد مكتباتهم بالكتب والمخطوطات الهامة، منهياً الفصل بالمصير المؤسف لتلك المكتبات.

وركزت في الفصل الرابع على المكتبات الخاصة ومكتبات المساجد

والمدارس، وتعرضت فيه إلى أهم المكتبات التي تكونت لدى بعض الأفراد أو الشخصيات الهامة وكيفية اقتنائهم للكتب، حيث سيجد القارىء أنه لا فرق بين فيلسوف أو أديب أو عالم دين في حبه وجمعه للكتب، وهذه ميزة لم تكن موجودة في المجتمعات السابقة للمجتمع الإسلامي.

وخصصت الفصل الخامس لازدهار وتنوع حركة التأليف في العصور الإسلامية. واحتوى الفصل على أهم الكتب التي ألفت وكان لها أثرها الكبير في مجرى الحياة الفكرية والثقافية آنذاك، مقسماً تلك المؤلفات وفق مجالات محددة هي: السيرة النبوية، واللغة، والأدب، والفلسفة، والطب، والصيدلة، وعلم الاجتماع، وعلم الفلك والنجوم، والرياضيات، والكيمياء، والببليوغرافيا، والتراجم، والتاريخ، والجغرافيا.

وتناولت في الفصل السادس حركة الوراقة وأثرها في نمو المكتبات الإسلامية، مبيناً الوظائف التي يقوم بها الوراق وازدهار هذه الحركة بعد توصل العرب إلى صناعة الورق سنة ٧١٢ م. كما تم التطرق إلى ذكر أدوات الوراقين ودكاكينهم وأسواقهم والمشاهير منهم.

وفي الفصل السابع تناولت موضوع الحكم والنوادر والطرائف الخاصة بالعلم والكتاب، حيث تم ذكر بعض الآيات الواردة في القرآن الكريم في فضل العلم وما جاء في الآيات الكريمة عن الكتاب، وأقوال الرسول عليه عليه الصلاة والسلام والصحابة في فضل العلم وطلبه. كما تضمن هذا الفصل ما قيل في العلم والكتاب من الشعر متطرقاً إلى الإعارة والحبر والقلم والخط. كما تضمن الفصل العديد من الطرف والنوادر الخاصة بالعلم والكتاب والتي وقعت ضمن الفترة المحددة وهي بنهاية القرن السابع الهجري.

وخصت الفصل الأخير من الكتاب لصور صفحات من بعض المخطوطات القرآنية التي كتبت في الفترة من القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري والتي لا تزال موجودة بصورتها الأصلية وذلك من أجل إعطاء القارىء صورة واضحة عن نوعية الكتابة والخط ونوع الورق والزخرفة المستخدمة حينذاك.

ولإبراز أهمية هذا الكتاب باعتباره مصدراً يمكن الاستفادة منه، فقد اعتمدت على الكثير من كتب التراث الإسلامي وعلى العديد من الكتب التي تناولت الكتاب والعلم والمكتبات سواء كانت لمؤلفين قدامى أم معاصرين. وحاولت قدر الإمكان ذكر السنة التي توفي فيها الكاتب، وتاريخ إصدار الكتاب، وتاريخ تأسيس المكتبات بمختلف أنواعها من أجل تبصير القارىء بالفترة التي وقع فيها الحدث.

ولا يسعني في هذه العجالة إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأخ الدكتور عبد اللطيف كانو مؤسس بيت القرآن الذي قدم لي الدعم والمساندة بتزويد كتابي هذا بصور من المخطوطات القرآنية المتوافرة ببيت القرآن.

منصور سرحان

يناير ١٩٩٧

البحرين

الفصل الأول



مكتبات العالم القديم

اهتمت الحضارات القديمة والحديثة على السواء بتأسيس المكتبات نظراً لما لها من دور فاعل في تطوير المجتمعات وخلق الرفاهية والازدهار والمحافظة على النتاج الثقافي المحلي، وما توصلت إليه البشرية من نتاجات مختلفة في أوجه الفكر والأدب.

واقترن وجود المكتبات منذ بزوغ فجر التاريخ بظهور الكتابة وتطورها. ولم يكن التوصل إلى معرفة الحروف وصياغتها في كلمات وصبها في جمل من عمل فرد معين بذاته، وإنما حدث ذلك من خلال فترات زمنية مختلفة، بذل الكثير من أبناء البشرية جهوداً مضنية حتى استطاعوا التوصل إلى الأبجديات التي ساهمت بدورها في تطوير حركة الكتابة والتأليف ومن ثم تأسيس المكتبات لحفظ الوثائق والمخطوطات والكتب فيما بعد وتقديمها لطلبة العلم والمعرفة.

بدأت المحاولات الأولى للكتابة على شكل صور ورسوم منقوشة فوق جدران الكهوف التي سكنها الإنسان، وعلى الحصى وقطع الصخور مسجلاً مشاعره وأفكاره ومعبراً عما يحدث له في محيط بيئته عن طريق مشاهد من حياته اليومية. ويشير روجرز فرانسيس في كتابه «قصة الكتابة والطباعة من الصخرة المنقوشة إلى الصفحة المطبوعة» إلى وجود رسامين موهوبين استطاعوا منذ آلاف السنين أن يرسموا صوراً جميلة لجوانب من مجتمعاتهم ومحيط بيئتهم. ومن أشهر النقوش التي لا زالت باقية مجموعة من الحصباء عمرها أكثر من عشرة آلاف سنة وجدت مدفونة في كهف مادازيل في جنوب فرنسا.

وتوصل السومريون إلى الكتابة على الألواح الطينية منذ خمسة آلاف سنة، حيث كانت تتم الكتابة على تلك الألواح عن طريق إحداث خدوش على سطحها وهو رطب، ثم تترك لتجف مستخدمين أقلاماً صلبة ذات نهايات مدببة مثل شظايا العظم أو مسامير النحاس، والأخيرة كانت أكثر استخداماً نظراً لسهولة الحصول عليها مما أدى إلى إطلاق تسمية الخط المسماري على هذا النمط من الكتابة. وبتوصل السومريون إلى هذا النوع من الكتابة بدأ النتاج الأدبي والفكري يزداد بشكل متواصل، مما دعى إلى توفير مكان معين لحفظ ذلك النتاج والرجوع إليه حين الحاجة، وبذلك تم الاتجاه إلى تأسيس المكتبات في العالم القديم.

مكتبات وادي الرافدين

يجد المتتبع لتاريخ المكتبات في وادي الرافدين مدى اهتمام الحضارات القديمة التي تعاقبت على بلاد ما بين النهرين بتأسيس المكتبات والتي عي عبارة عن مخازن ضخمة تجمع فيها الرقم الطينية وبعض الحصى والصخور المنقوش أو المكتوب عليها. وساهمت حضارة وادي الرافدين في تطور الحياة البشرية من خلال بناء وتأسيس العديد من المكتبات المتنوعة والمختلفة والتي يمكن ذكر أهمها فيما يلي:

مكتبة لكش:

من بين المكتبات القديمة التي تم اكتشافها في العراق مكتبة مدينة لكش (٣٢٠٠ ـ ٢٧٥٠) ق.م، وهي من أقدم مكتبات وادي الرافدين. وقد وجد فيها مئات الرقم الطينية وكانت منظمة في مبنى المكتبة ضمن صفين. كما وجدت في المعبد الذي كان يضم المكتبة أكثر من حجرة مليئة بالرقم من أحجام مختلفة، بعضها كان مكدساً، والبعض الآخر كان منظماً فوق رفوف خصصت له. أما الألواح الصغيرة فكانت محفوظة داخل قوارير ضخمة[١].

(١) عبد اللطيف الصوفي. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات. ص ١٣٦.

مكتبة نيبور:

يعود تاريخ تأسيس مكتبة نيبور التي تقع جنوبي مدينة بابل إلى الألف الثالث قبل الميلاد. فقد حوت المكتبة عدة آلاف من الألواح والرقم الطينية تشمل مواضيع مختلفة كالأدب والطب والحساب والتنجيم والنصوص القانونية والتجارية وغيرها من الموضوعات المعروفة آنذاك. ونظمت محتويات المكتبة عن طريق وضع السجلات والوثائق على رفوف بمبنى المكتبة، أما الألواح الطينية فقد تم وضعها في جرار كبيرة ورتبت وفق مواضيعها، وفي بعض الأحيان وفق أحجامها.

ويؤكد الخبير الأمريكي س.ن. كرامر الذي اهتم بآثار العراق وركز بصورة خاصة على تاريخ وثقافة السومريين، أنه اكتشف أحد النصوص المدونة على رقم طيني عبارة عن فهرس لإحدى المكتبات بمدينة نيبور التي تمثل المركز الثقافي والديني للسومريين. ويعود تاريخ ذلك الفهرس إلى سنة ٢٠٠٠ ق.م. وهو محفوظ حالياً في المتحف الجامعي في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد وجد على الوجه الأمامي والخلفي لهذا الرقم الطيني سجلاً لاثنين وستين كتاباً تتناول مواضيع مختلفة، وتنتمي الكتب الأخيرة المسجلة وعددها ثلاثة عشر كتاباً إلى مجموعة الحكمة. كما عثر كرامر على رقم طيني آخر موجود الآن في متحف اللوفر بباريس يحمل بعض عناوين الكتب التي دونت في الرقم المحفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا. غير أن هذا الرقم امتاز أيضاً بوجود عناوين جديدة لكتب أخرى. وبلغ عدد العناوين المسجلة على وجهي هذا الرقم ٨٧ عنواناً.

ويعتبر السومريون من الأمم الراقية المثقفة، فهم الذين خصوا الكتاب بالدور الذي ارتبط به حتى هذه الأيام باعتباره الحافظ لجميع الإنجازات الإنسانية في مجال الثقافة وأمور التعليم.

مكتبة نينوى:

تعتبر مكتبة نينوى أهم مكتبة عرفها العالم القديم، ويعود الفضل في شهرتها إلى الملك آشور بانيبال ٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م. الذي تمتع بثقافة واسعة وحب للعلم والمعرفة، مما جعل عصره عصر ازدهار ثقافي وأدبي خاصة وأنه

أمر بجمع آداب بابل وآشور. ويذكر دال سفند أن الملك آشور بانيبال أمر بأن يوضع في مكتبة نينوى نسخة مبوبة من النصوص المستقاة من كافة محفوظات المدن والمعابد، وعين عدداً من النساخ لإتمام هذا العمل. كما يذكر الدكتور عبد اللطيف الصوفي في كتابه «لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات» أن الملك آشور بانيبال اهتم بتنظيم مكتبة نينوى اهتماماً عظيماً فعين عدداً من المختصين للمكتبة، فقاموا بترتيب الألواح الطينية تبعاً لموضوعاتها بعد ختمها بخاتم خاص يبين موضعها داخل المجموعة. كما جعلت لها فهارس تسهل الرجوع إلى مقتنياتها من وثائق ورسائل ونصوص دينية وتاريخية[١].

تم اكتشاف مكتبة نينوى في بداية التنقيبات الأثرية في العراق، حيث اكتشف الدبلوماسي الإنكليزي الشاب أ.هـ. لايرد بقايا مدينة نينوى العاصمة الآشورية بالقرب من الموصل وذلك خلال الفترة من ١٨٤٥ إلى ١٨٥١ م. وفي عام ١٨٥٠ اكتشف لايرد البلاط الملكي للملك سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) ق.م. ووجد فيه ما أطلق عليه غرفة السجلات. غير أن المثير في الأمر أن هـ. راسم تابع العمل بعد لايرد على فترتين الأولى من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٤ م والثانية من ١٨٧٧ إلى ١٨٨١ م واكتشف بقايا مقر الملك آشور بانيبال ومكتبته الضخمة التي ضمت أكثر من عشرين ألف رقم طيني، حيث نقلت إلى المتحق البريطاني في لندن.

اهتم الملك آشور بانيبال كما تم ذكره سلفاً بنسخ كل الرقم القديمة التي يعثر عليها في أرجاء مملكته أو أن يتم نقلها إلى مكتبته. وفي إحدى رسائله إلى أحد المسؤولين في بابل نجده يأمره بالتالي:

«ابحثوا عن الرقم القيمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها لي. لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ومحافظ المدينة في بورسيبا عنك، وعليك الآن يا شادان أن تحفظ الرقم في مقرك بحيث لا يجرأ أحد على أن يسرق منها شيئاً. وحيثما تجد أي رقم أو أي نص شعائري يمكن أن يناسب قصري فخذه وأرسل إلى هنا»[٢].

---

(١) عبد اللطيف الصوفي. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات. ص ١٤٠.

(٢) الكسندر ستيبتشفيتش. تاريخ الكتاب. ج ١. ص ٢٥.

مكتبات مصر القديمة

تشير السجلات التاريخية إلى أن أول مكتبة أسست بمصر القديمة هي تلك التي أسست في غزة عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. وازدهرت المكتبات بشكل رئيسي في عهد رمسيس الثاني الذي بنى مكتبة في عام ١٢٥٠ ق.م.[١]. واعتباراً من عهد رمسيس الثاني أخذت المكتبات في الانتشار وأخذ الملوك في تأسيس مكتبات لهم في قصورهم.

ومما زاد من حركة تأسيس المكتبات في مصر القديمة توصلهم إلى الخط الهيروغليفي في عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وبانتشار الكتابة المصرية برزت في مصر المكتبات الخاصة، وحاول النبلاء والأغنياء تقليد الملوك في تأسيس مكتباتهم الخاصة في قصورهم مما عجل بانتشار المكتبات الخاصة بين المواطنين المصريين وأصبحت ظاهرة مميزة للمجتمع المصري.

المكتبات القديمة في سورية

مكتبة إيبلا:

تقع مدينة إيبلا القديمة في جنوب غرب مدينة حلب بسورية. وقد كشف خبراء الآثار من جامعة روما في عام ١٩٧٤ مكتبة في حالة جيدة. وتم اكتشاف بقايا القصر الملكي هناك وكان يحتوي على قسمين خاصين بالكتب، حيث أخرج علماء الآثار قرابة ١٧ ألف رقم طيني مدونة بالحروف المسمارية ولكن باللغة المحلية وهي اللغة الإيبلية.

وتؤكد أعمال الحفر أن القصر الذي كان يضم المكتبة قد تهدم سنة ٢٢٥٠ قبل الميلاد بسبب حريق شب فيه خلال هجوم الملك الأكادي نارام سين. وأدى هذا الحريق إلى تهشم الرفوف الخشبية التي صفت عليها الرقم الطينية مما أدى إلى تساقط الرقم الطينية بعضها فوق بعض، وبهذا أمكن التعرف على كيفية صف وتنظيم الرقم في المكتبة وعلى رفوفها. فقد تبين أن الرقم كانت مرتبة الواحدة تلو الأخرى لدرجة أنه بالإمكان النظر إليها

(١) منصور محمد سرحان. الكتاب والمكتبات. ص ١٢.

وقراءتها كما يقرأ المتردد على المكتبات في هذه الآيام بطاقات الفهرسة.

احتوت الرقم الطينية بالمكتبة على نصوص أدبية وتاريخية وإدارية وقانونية وتجارية، كما احتوت المكتبة على المعاجم الإيبلية السومرية ووضعت على رفوف خاصة بها. كما وضعت بقية الرقم على رفوف خاصة بها وفق مواضيعها.

المكتبات في أوغاريت

تقع مدينة أوغاريت في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية على الساحل السوري. ويرجع الفضل في اكتشاف الرقم الطينية في هذه المدينة إلى رئيس بعثة التنقيب الفرنسية ك. شافير الذي بدأ عمليات الحفر في رأس شمرا منذ عام١٩٣٩ م. وعثرت البعثة على رقم طينية نقشت عليها الحروف المسمارية للغة مجهولة حتى ذلك الحين ـ اللغة الأوغاريتية. واتضح أن مضمون تلك الرقم يتعلق بإعادة ترتيب الحوادث التاريخية في النصف الثاني للألف الثانية قبل الميلاد[١]، وهو الوقت الذي كانت فيه أوغاريت تعايش أعظم ازدهار اقتصادي وثقافي.

وتم في عام ١٩٢٩ م اكتشاف مكتبة وورشة للكتابة في مقر سكن رئيس الكهنة في مدينة أوغاريت. وحوت هذه المكتبة كتب دينية، وثقافية، وأدبية، ومعاجم. كما عثر على العديد من المكتبات الخاصة بالمدينة، غير أنه حتى الآن لم يتم اكتشاف المكتبة الرئيسية بمدينة أوغاريت.

المكتبات القديمة في فارس

كانت المكتبات معروفة في فارس القديمة، ومنها انتشرت إلى بقاع أخرى من العالم القديم. وحرص ملوك الفرس على الاهتمام بالمكتبات من حيث المبنى وكيفية الاحتفاظ بمقتنيات المكتبة سليمة على مدار الزمان. وفي هذا الصدد يذكر ابن النديم في الفهرست «أن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على

---

(١) الكسندر ستيتشفيتش. تاريخ الكتاب. ج ١. ص ٢١.

الأحداث، وأبقاها على الدهر، وأبعدها عن التعفن والدروس، لحاء شجر الخدنك، ولحاؤه يسمى التوز. وبهم اقتدى أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم في ذلك، واختارها أيضاً لقسيهم التي يرمون عنها لصلابتها وملاستها وبقائها على القسي غابر الأيام»(١).

وتبرهن المصادر التاريخية على أن ملوك فارس كانت لهم اهتمامات شديدة بالمحافظة على العلوم واقتناء الكتب. وفي هذا المجال يذكر ابن النديم في فهرسته أيضاً. أنه عندما خرج الإسكندر ملك اليونانيين، غازياً أرض فارس وقتل دارا بن دارا الملك واستولى على ملكه، قام بتهديم المدن وأهلك ما كان في صنوف البناء من أنواع العلم الذي كان منقوشاً أو مكتوباً في صخور ذلك البناء أو خشبه. كما أمر الإسكندر بنسخ ما كان مجموعاً من المؤلفات التي وجدت في الدواوين والخزائن بمدينة اصطخر، ثم أحرق بعد فراغه من نسخ حاجته منها ما كان مكتوباً بالفارسية. كما أخذ الإسكندر كل ما كان يحتاج إليه من علم النجوم أو الطب والطبائع وبعث بتلك الكتب إلى مصر.

وقد خسرت البلاد الفارسية مخزونها من الكتب وحتى من العلماء بعد غزو الإسكندر لها. وبقيت ردحاً من الزمن تكابد ما سببه الإسكندر لها من نقص في العلوم والكتب، إلى أن تولى أمر الدولة الفارسية أردشير بن بابك من نسل ساسان، فبعث إلى بلاد الهند والصين لجلب الكتب التي كان الفرس في السابق قد تركوها هناك، أو تلك التي كانت ملوك فارس نسختها على عهد نبيهم زرادشت، فأمر بنسخ الكتب التي تقع في أيديهم. كما تتبع بقايا يسيرة من الكتب بقيت بالعراق فجمع منها ما كان متفرقاً.

وأبدى سابور بن أردشير نفس الحماس الذي كان يتميز به والده في المحافظة على جمع الكتب، حتى نسخت أعداد كبيرة بالفارسية، وتم بهذا تعويض ما دمره الإسكندر. وكان لكسرى أنو شروان اهتماماته الكبيرة أيضاً بجمع الكتب في مختلف العلوم، إلا أنه اهتم بالكواكب والبروج أكثر من غيره من ملوك فارس.

ومن الجدير ذكره أن ملوك فارس طلبوا من المهندسين آنذاك أن يجوبوا جميع أرجاء فارس لمعرفة أي الأقاليم أصحها تربة وأقلها عفونة

---

(١) ابن النديم. الفهرست. ص ٥٠١.

وأبعدها من الزلازل والخسوف، وأبقاها على مر الأيام والسنين. واختاروا بعد تجوالهم في جميع أقاليم فارس إقليم أصفهان وبنيت المكتبة في موضع يسمى سارويه من مدينة جي من إقليم أصفهان، وتم إيداع الكتب والمصادر الهامة فيها وبقيت كذلك ردحاً من الزمن.

وبمرور الأيام والسنين أهملت المكتبة ولم يعرف الناس عنها شيئاً، وأصبحت وكأنها جزء من مبنى تاريخي. وبعد أن تهدمت ناحية من مبنى المكتبة انكشف سر المبنى، حيث تم العثور على مجموعات من الكتب من بينها كتب الأوائل مكتوبة في لحاء التوز وبها علوم الأوائل بالكتابة الفارسية القديمة، كما عثر على كتب لبعض ملوك الفرس المتقدمين. وتم العثور أيضاً على كتاب منسوب إلى بعض الحكماء الأقدمين حول الكواكب وحركتها.

ويقال أن أبا الفضل بن العميد استطاع الحصول على بعض كتب هذه المكتبة بعد أن تهدمت سنة ٣٥٠ هجرية. ويؤكد ابن النديم في فهرسته ذلك بقوله: «خبرني الثقة أنه انهار في سنة خمسين وثلاثمائة من سني الهجرة أزج أخر، لم يعرف مكانه لأنه قدر في سطحه أنه مصمت إلى أن انهار. وانكشف عن هذه الكتب الكثيرة التي لا يهتدي أحد إلى قراءتها والذي رأيت أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد أنفد إلى هاهنا في سنة نيف وأربعين كتباً متقطعة، أصيبت بأصفهان في سورة المدينة في صناديق، وكانت باليونانية، فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره».

المكتبات القديمة في تركيا

المكتبة الحيثية في هاتاشوش:

أسس الحيثيون مكتبة لهم في عاصمتهم حتوساس وهي مدينة تقع في بوغازكوي شرق أنقرة في تركيا. وتشير أعمال الحفر التي بدأت منذ عام ١٩٠٦ إلى اكتشاف آلاف الرقم الطينية التي احتوت على كتابات حيثية بالحروف المسمارية البابلية والتي يرجع تاريخ كتابتها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. ومن بين النصوص التي تضمنتها الرقم الطينية نصوص إدارية ودبلوماسية وتاريخية وأدبية.

وكانت المكتبة منظمة تنظيماً جيدًا بحيث تساعد المراجع في الحصول على مادته التي يطلبها، وأصبح العاملون بالمكتبة على دراية بكيفية التوصل إلى الرقم المطلوب من بين آلاف الرقم الطينية المتوافرة بالمكتبة. فقد وجدت في نهاية الرقم الطينية بمكتبة هاتاشوش معلومات تتعلق بالعنوان وبصورة خاصة مضمون النص. ففي حالة وجود تكملة لنص ما فإن الرقم في هذه الحالة تُرَقّم، بحيث يبدأ الرقم الطيني الذي يحمل تكملة الرقم الأول بالجملة الأخيرة الواردة في الرقم السابق.

ومن أجل معرفة مكان كل رقم طيني فقد استطاع العاملون بالمكتبة من وضع فهرس للمكتبة. وبهذا نجد أوجه تشابه بين أنظمة بعض المكتبات القديمة لمكتبة نيبور ومكتبة إيبلا والمكتبة الحيثية هذه وذلك نتيجة للاتصال بين تلك الحضارات والمدن من الناحية التجارية.

المكتبات في اليونان:

أخذ العلم ينتشر بين أفراد المجتمع اليوناني بشكل لم يسبقه مثيل بين الشعوب الأخرى في العالم، مما أدى إلى وجود حركة علمية وأدبية وفلسفية على درجة كبيرة من الأهمية. وأخذ الناس يتجادلون فيما بينهم في أمور الأدب والتاريخ والعلوم والرياضيات والسياسة والفلسفة وغير ذلك من صنوف المعرفة المعروفة آنذاك.

ونتيجة لوجود علماء وفلاسفة كبار في اليونان، فقد وجدت ظاهرة انتشار المكتبات الخاصة في المنازل. ففي القرن الخامس قبل الميلاد انتشرت تلك الظاهرة وأصبح البعض مثل أرسطو وأفلاطون وغيرهما يملكون مكتبات ضخمة خاصة بهم.

أما في اليونان الهلنستية فقد وجدت بها المكتبات الملكية والحكومية مثل مكتبة الإسكندرية التي ضمت الكثير من المخطوطات الإغريقية والفارسية والعبرانية والهندية[1]. ويرجع الفضل في تأسيس مكتبة الإسكندرية إلى

(١) منصور محمد سرحان. الكتاب والمكتبات. ص ١٣.

بطليموس الأول المتوفى عام ٢٨٣ قبل الميلاد. وقد رعاها من بعده ابنه بطليموس الثاني الذي زودها بالعديد من المخطوطات حتى ضاقت بما فيها من مقتنيات عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، بعد أن أصبحت تضم عدة مئات الآلاف من لفائف البردى. ومن الطريف أنه بعد تولي بطليموس الثالث العرش، ألزم جميع القادمين إلى الإسكندرية تسليم ما لديهم من كتب وضمها إلى مكتبة الإسكندرية، هذا إذا لم تكن تلك الكتب موجودة بالمكتبة.

كما يرجع الفضل في تنظيم مكتبة الإسكندرية إلى كاليماخوس، وهو أحد أبرز العلماء والشعراء المشهورين. فقد قام بتصنيف محتويات المكتبة من لفائف البردى التي بلغت قرابة نصف مليون لفافة. ووضع كاليماخوس فهارساً للمكتبة بلغ عدد ملفاتها قرابة ١٢٠ ملفاً.

المكتبات في الامبراطورية الرومانية

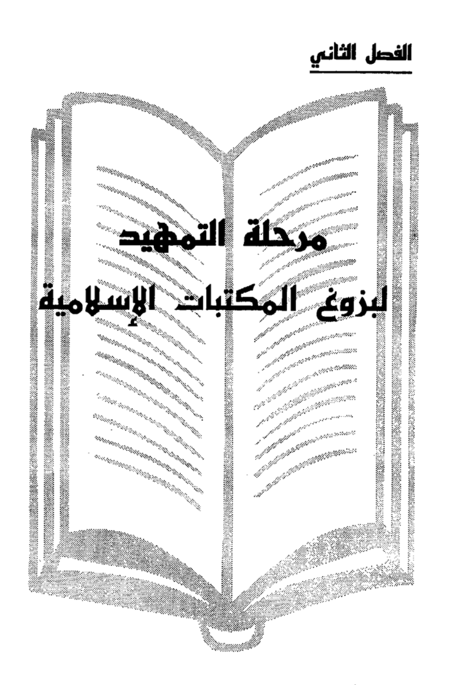
لم يذكر التاريخ دولة غازية حافظت على الأمور الثقافية والحضارية في البلدان التي احتلتها كالدولة الرومانية. فعندما اجتاح الرومان اليونان شاهدوا العديد من المكتبات المنظمة والمليئة بالوثائق والمخطوطات والكتب، فأخذوا يباشرون بنقل محتويات تلك المكتبات إلى روما دون أن تصاب بأضرار. كما تم نقل جميع محتويات مكتبة أرسطو إلى روما. وأصبحت ظاهرة اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات في المنازل منتشرة بين الأثرياء الرومان، حتى أولئك الذين لا يجيدون القراءة، مما أدى إلى انتشار المكتبات الخاصة في القرن الأول الميلادي[1].

غير أنه وقبل استهلال القرن الأول الميلادي بثلاثة عقود، اهتم يوليوس قيصر بتأسيس المكتبات العامة من أجل إعطاء الفرصة لجميع المواطنين للاستفادة من موجودات المكتبة، خاصة وأن ظاهرة انتشار الكتاب أخذت تبرز بين أفراد المجتمع الروماني في عهده. وتشير المصادر إلى أن أول مكتبة عامة أسسها يوليوس قيصر بروما كانت ما بين عام ٣٩ و٢٧ قبل الميلاد.

---

(١) منصور محمد سرحان. المصدر السابق. ص ١٤.

الفصل الثاني



مرحلة التمهيد لبزوغ المكتبات الإسلامية

انتشرت المكتبات على اختلاف أنواعها في العصور الإسلامية بشكل بات يمثل منعطفاً جديداً في تبني الحركة الثقافية والفكرية في العالم الإسلامي. وإذا كانت البدايات الأولى لبزوغ المكتبات الإسلامية تمثل في العصر الأموي، فقد بلغت أوجهاً في العصرين العباسي والفاطمي، وامتدت لتشمل بقية أجزاء الدولة الإسلامية بما في ذلك الأندلس.

غير أن بزوغ فجر المكتبات الإسلامية وبالزخم الذي شهدته الساحة الثقافية والفكرية آنذاك لم يأت من فراغ، وإنما جاء عبر مرحلتين مهدتا لتأسيس المكتبات الإسلامية. وتتمثل المرحلة الأولى في العلوم والمعارف المتداولة بين العرب قبل مجيء الإسلام. أما المرحلة الثانية فتتمثل بعهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين.

أولاً: علوم وثقافة العرب قبل مجيء الإسلام:

تميزت الجزيرة العربية بمناخها الصحراوي الحار، وبقلة مواردها الطبيعية ومحدودية الزراعة فيها، وبندرة مصادر المياه نتيجة لقلة أمطارها، مما جعل الحياة فيها تأخذ جانب البداوة والتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلاء والمرعى في ربوع الجزيرة العربية. وعلى العكس من ذلك عاش عرب اليمن السعيد وسط مناخ معتدل غني بمياهه وثرواته الزراعية، مما أوجد حضارة مدنية تختلف تمام الاختلاف عن عرب شمال شبه الجزيرة العربية.

غير أن زرقة السماء الصافية تضفي جمالاً ساحراً على الصحراء أثناء شروق الشمس الساطعة أو غروبها الفاتن، وكذلك لياليها المقمرة، مما يجعل من تلك الكثبان الرملية والمناطق الصحراوية مكان أنس وفرح وسمر، يخفف من قساوة الحياة البدوية وما يتبعها من عزلة شبه تامة عن العالم الخارجي، وإن كانت لهم بعض الاتصالات مع الفرس في الشمال الشرقي، والبيزنطيين في الشمال، إضافة إلى اتصالاتهم بعرب الجنوب وغيرهم من أمم أخرى.

وقد اقتصرت اتصالات سكان شبه الجزيرة قبل الإسلام بتلك الشعوب على التجارة المحدودة بينهم، وتمثلت في حماية وحراسة قوافل تلك التجارة. وحيث أن العرب في شبه جزيرتهم يعيشون في جاهلية مدقعة، وأمية متفشية، فإنهم لم يستفيدوا من الاختلاط بتلك الشعوب عبر التجارة. وبقوا على معيشتهم الرتيبة البعيدة كل البعد عن مظاهر التمدن والحضارة.

ويلخص المسعودي حياة العرب في الجاهلية من جميع الجوانب الاجتماعية والثقافية والقيمية بذكره «أنه وفد على كسرى أنو شروان بعض خطباء العرب، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيارها البدو، فقال: أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا عن التحصن بالأسوار، واعتمدوا على المرهفات الباترة، والرماح الشارعة جُنَناً وحصوناً، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له، يَرِدُون منها خيارها، ويقصدون ألطافها، قال: فأين حظوظهم من الفلك؟ قال: من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدي مشرقين في البر بحسب ذلك، قال: فما رياحها؟ قال: أكثرها النكباء بالليل والصَّباء عند انقلاب الشمس، قال: فكم الرياح؟ قال: أربع، فإذا انحرفت واحدة منهن قيل: نكباء، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب، وما بإزائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال، وما جاء من وراء الكعبة فهي دبور، وما جاء من قبل ذلك فهي صبا، قال: فما أكثر غذائهم؟ قال: اللحم واللبن والنبيذ والتمر، قال: فما خلائقهم؟ قال: العز، والشرف، والمكارم، وقرى الضيف، وإذمام الجار، وإجارة الخائف، وأداء الحمالات، وبذل المهج في المكرمات، وهم سراة الليل، وليوث الغيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألفوا القناعة، وشنفوا الضراعة، لهم الأخذ

بالثأر، والأنفة من العار، والحماية للذمار»[1].

أدت عوامل الجهل التي سادت شبه الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام، وانزوائهم شبه الكامل عن بقية الحضارات الأخرى، إلى انتشار الخرافات والأساطير فيما بينهم، وازدهار مهنة الكهانة والعرافة. وأصبح الكاهن يقوم بدور الطبيب والفيلسوف والعالم المتبصر الذي يحل بكلماته مشاكلهم ويشافي مرضاهم. كما كانوا يرون في الكهنة قدرات خارقة على التنبؤ واستطلاع الغيب، وإن ذلك يأتيهم بواسطة الأرواح. وظلت الكهانة ملازمة للعرب حتى جاء الرسول عليه الصلاة والسلام فأبطلها بقوله: «لا كهانة بعد النبوة».

وعلى الرغم من التخلف الذي عاشه العرب إبان الجاهلية، إلا أنهم برعوا في كثير من العلوم ومن بينها علم النجوم الذي اتخذوه عن الكلدانيين وتعلموا منهم منازل الشمس والقمر ومواقع الأبراج وأسماء النجوم. ويضيف جورجي زيدان على ذلك بقوله: «ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد رأيت أنهم عرفوا السيارات والأبراج، وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الأمم الأخرى وفي قدم أسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها، مثل الظباء، والربع، والفرقد، والقدر، وكلب الراعي، والأغنام والفوارس، والذئبين، والسماك وغير ذلك من أسماء»[2]. (انظر تقويم عصر الجاهلية في نهاية الكتاب).

وقسم العرب منازل القمر إلى ثمانية وعشرين قسماً، أطلق على كل قسم اسماً معيناً من الأسماء مثل الثريا والدبران والإكليل وسعد بلع وبطن الحوت.. الخ. وكانت لهم خبرة ودراية بعلم الظواهر الجوية أي فيما يخص هطول الأمطار وهبوب الرياح وإن كانوا ينسبون تلك الظواهر إلى طلوع الكواكب أو غروبها. فكانوا يستدلون بنزول الأمطار من خلال أشكال الغيوم وألوانها، فالسحابة البيضاء قليلة المطر، أما السوداء فمطرها غزير.

---

(١) المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. جـ ٢. ص ١٢١.
(٢) جورجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. جـ ٣. ص ١٤.

ومن بين ما اشتهر به العرب معرفتهم أشهر السنة وأيامها. فذكروا أن شهور السنة أولها شهر محرم، وأيام السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، وهذا يعني أنها تنقص عن السنة السريانية بأحد عشر يوماً وربع اليوم. وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهر وتسميه النسيء[1]. واستطاع العرب إطلاق أسماء معينة على شهور السنة من واقع حياتهم الاجتماعية التي يعيشونها. وبدأت السنة العربية بشهر محرم وسمى كذلك لتحريم العرب الحرب والغارات فيه. وسمى الشهر الثاني بصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من سكانها الذين يخرجون إلى الحرب. أما ربيع فسمى كذلك لارتباع الناس والدواب فيهما، وجماد لجمود الماء فيهما. وسمى شهر رجب لخوفهم إياه، وشعبان لتشعبهم إلى المياه وطلب الغارات، ورمضان لشدة حر الرمضاء فيه، كما أنه اسم من أسماء الله تعالى. أما شوال فلأن الإبل كانت تشول فيه بأذنابها، وذو القعدة لقعودهم فيه عن الحرب والغارات، وذو الحجة لأنه يقام فيه الحج.

كما توصل العرب إلى معرفة الفصول الأربعة، واعتبر بعضهم الربيع أول فصول السنة. وتقول العرب: خرفنا في بلد كذا، وشتونا في بلد كذا، وتربعنا في بلد كذا، وصفنا في بلد كذا، وهذا يعطينا دلالة على معرفتهم بأسماء الفصول وترتيبها وفق أيام السنة.

وبرع العرب في اقتفاء وتتبع آثار حوافر وإخفاف الحيوانات وآثار أقدام الإنسان والتعرف على أصحابها. وأبدع العرب في هذا المضمار لدرجة أنهم تمكنوا من التفريق بين قدم المرأة والرجل، والشاب والرجل الهرم، بل استطاعوا التفريق بين قدم المرأة البكر والثيب.

واهتم العرب بأمور النسب، وكانوا يتفاخرون في ذلك بروح من الكبرياء. وكثر النسابون في العصر الجاهلي لدرجة لم تخل قبيلة منهم. وكان النسابون يحفظون بدرجة متقنة أسماء القبائل وما يتفرع منها مرتبين الأنساب في ست طبقات هي: الشعب ثم القبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة[2].

---

(١) المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. جـ ٢. ص ٢٠٤.

(٢) جورجي زيدان. المصدر السابق. ص ٤٠.

ويقصد بالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر، والعمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة، والبطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، والفخذ وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس.

وامتهن العرب الطب في جاهليتهم مستفيدين من تجارب بعض الأمم في هذا المجال وبالأخص الكلدانيين. ويذكر جرجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» استفادة العرب وبقية شعوب العالم القديم من خبرات الكلدانيين قائلاً: «وعن الكلدان أخذت سائر الأمم القديمة وفي جملتها العرب، وهو متشابه عند تلك الأمم في مصروفينيقية وآشور. ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا أبوابه، وعنهم أخذ الرومان والفرس. ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها أضافوه إلى ما جاءهم به الكلدان، وإلى ما استنبطوه من عند أنفسهم بالاختبار»[1].

وعرفت طريقتان للعلاج والطب زمن الجاهلية، الأولى العلاج عن طريق الكهنة والعرافين، والثانية طريقة العلاج الحقيقية. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» من أن العرب كانوا يعالجون بالقطع والبتر، والغالب أن يكون ذلك بالنار. كما كانوا يعالجون حول البصر بإدامة النظر إلى حجر الرحى في دورانه، ويزعمون أن العين تستقيم به.

كما حاولوا ربط فصول السنة بأمور الصحة، فذكروا أن الصيف يقوي المرة الصفراء ويكثر اهتياجها، والخريف يقوي السوداء، والشتاء يقوي البلغم، والربيع يقوي الدم. وقسموا عمر الإنسان إلى أربعة أقسام مماثلة لفصول السنة من الناحية الصحية وهي: الصبا وفيه يقوى الدم، والشباب وفيه تقوى المرة الصفراء، والكهولة وفيها تقوى السوداء، والشيخوخة وفيها يقوى البلغم.

---

(١) جورجي زيدان. المصدر السابق. ص ٢٢.

نبغ العرب في أمور الأدب بما في ذلك الخطابة والبلاغة وقول الشعر الذي أصبح يمثل أهم رافد لتاريخ حياتهم الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية. ويرجع اهتمام العرب بالشعر ونبوغهم فيه لمكونات أساسية أهمها استعداد اللغة العربية للتعبير الشعري لما فيها من أساليب المعاني والبيان ووضوح الكلمات وصفائها وبلاغة اللغة ذاتها. كما أن العربي بمعيشته في البادية أتاحت له الاستعداد النظري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال.

وقد نشط العرب الأوائل في الرجز والقصيد وهما من الفنون الرئيسية للشعر العربي. فالرجز كان من الشعر في مراحله الأولى، ثم صار يستخدم فيما بعد كالأوزان الأخرى التي جاءت بعده، والتي كانت تقال فيها القصائد.

ويتفق الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه «المكونات الأولى للثقافة العربية» مع مؤرخي الأدب العربي في الرأي القائل، إن النظام الموسيقي لوزن الرجز قد تولد نتيجة التجارب بين حركة الإبل في مسيرتها وبين حاويها. بل إن اسم الرجز نفسه يعود إلى الرجز الذي ينتاب الناقة أو البعير وهو ارتعاد في المؤخر والأفخاذ عند النهوض[(١)].

وكانت العرب تستخدم الرجز في كثير من المناسبات وبصورة خاصة الحداء، حيث يعبر الحادي فيه عن حنينه إلى مضارب قومه وأحبته.

أما القصيد فأشهر من نبغ فيه امرؤ القيس والمهلهل. وقالت العرب إن المهلهل أول من قصد القصائد، وامرؤ القيس أول من أطالها وتفنن في نظمها.

نال الشعراء احترام قبائلهم باعتبارهم الجهة الإعلامية المؤثرة في ذلك الوقت، يمجدون قبائلهم ويعددون مآثرها ومناقبها ويدافعون عنها عبر قصائدهم التي قد تطول أو تقصر حسب المناسبة وأهميتها. فإذا نبغ شاعر

---

(١) عز الدين إسماعيل. المكونات الأولى للثقافة العربية. المورد. م ٩. ع ٢ (١٩٨٠) ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

في قبيلته يتم الاحتفاء به، وتأتي الوفود من القبائل للتهنئة فيولمون الولائم ويحيون الليالي بالغناء والطرب. وكان الملوك والأمراء ورؤساء القبائل يفتخرون بمدح الشعراء لهم ويبالغون في إكرامهم.

اهتم العرب بصورة عامة بالشعراء اهتماماً كبيراً حتى أنهم عمدوا إلى اختيار أفضل سبع قصائد وعلقوها في أستار الكعبة وأطلقوا عليها المعلقات. وكثر الشعراء في العصر الجاهلي حتى بات عدد ما قالوه من قصائد يصعب حصرها وتعدادها. ويذكر أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار العرب في الجاهلية زهاء ١٤٠٠٠ أرجوزة، وحفظ حماد الراوية قرابة ٢٧ ألف قصيدة، وكان الأصمعي يحفظ ١٦٠٠٠ أرجوزة.

لم يكن الشعر وحده الرافد الأدبي عند العرب في جاهليتهم، بل كانت الخطابة التي تحتاج إلى بلاغة وبداهة وقوة إدراك وخيال واسع من بين مقومات الحركة الأدبية في العصر الجاهلي. فالخطابة قريحة مثل الشعر ينبغ فيها أمراء القبائل ووجهائها وحكمائها حتى وإن كانوا أميون وهي فن من فنون الأدب تلقى بعبارات فصيحة يتم اختيار الألفاظ المألوفة الرقيقة المعاني لتؤثر على سامعها.

وعلى الرغم من اهتمام العرب في العصر الجاهلي بالشعراء وتقديمهم على الخطباء، إلا أنهم احتاجوا إلى الخطباء لإيفادهم إلى الأمراء والملوك والحكام، كوفود العرب على كسرى، ووفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر، ووفود قريش على سيف بن ذي يزن[1]. ولما جاء الإسلام فضل الخطباء على الشعراء وذلك للم شمل العرب وإقناعهم بالدخول في دين الله.

ومن حيث دخول الكتابة عند العرب، فإن المصادر العربية تشير إلى دخولها عن طريق بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيد بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل. وقد تعلم بشر الخط من أهل الأنبار وكانت تربطه علاقة حميمة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في العراق، فتعلم حرب الخط العربي من بشر وسافرا معاً إلى مكة. وقام بشر بتعليم مجموعة من

---

(١) ابن عبد ربه. العقد الفريد. جـ ١. ص ٢٧٥.

أهل مكة الكتابة أثناء وجوده هناك. وقد تفاخر رجل كندي من دومة الجندل بفضلهم على قريش وتعليمهم الخط العربي قائلاً:

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتم ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة ... وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند الحي حمْير ... وما كتبت في الصحف أقلام حمْيرا[1]

ويشرح رشيد يوسف عطا الله في كتابه «تاريخ الآداب العربية» أن الجزم المشار إليه هو نوع من الخط وضعه رجل من أهل الأنبار وقيل الحيرة اسمه مرامر بن مرة الطائي. وسبب تسمية هذا الخط بالجزم أنه جزم أي قطع عن المسند وهو خط حمْير أهل اليمن، وكان لهم التقدم في الحضارة على سائر العرب إلا أن كتابتهم كانت محصورة فيهم قلما يعلمونها أحداً.

ويرى آخرون أن الجزم كان يطلق على الخط الكوفي قبل وجود الكوفة نفسها وحلولها محل الحيرة، وهو مأخوذ عن الكتابة السريانية. وذهب البعض إلى أن السرياني هو أصل المسند لأنه أقرب شبهاً به من الكوفي، وعليه يكون الكوفي منقولاً عن المسند والمسند منقولاً عن السرياني وقيل غير ذلك[2].

وقال ابن عباس: أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنوا الأنبار وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة. وهم موامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جذرة، ويقال مرة وجذلة. فأما موامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام. وسئل أهل الحيرة ممن أخذتم العربي؟ فقالوا من أهل الأنبار[3].

وروى مكحول عن رجاله أن أول من وضع الكتاب العربي نفيس ونصر وتيما ودومه، هؤلاء ولد إسماعيل، وضعوه مفصلاً، وفرقه قادور ونبت بن هميسع بن قادور. قال: وإن نفراً من أهل الأنبار من أياد القديمة

---

(١) رشيد يوسف عطا الله. تاريخ الآداب العربية. جـ ١. ص ٢٥.
(٢) رشيد يوسف عطاالله. المصدر السابق. جـ ١. ص ٢٦.
(٣) ابن النديم. الفهرست. ص ٣٠.

وضعوا حروف: أ ـ ب ـ ت ـ ث وعنه أخذت العرب[١].

ومن بين ما اهتم به العرب في العصر الجاهلي تدوين تاريخهم الذي هو عبارة عن معلومات حول الأنساب وأيام العرب ومثالبهم. وقد تأثر العرب في صدر الإسلام بالاهتمام بالأنساب أيضاً، حتى كان من بين أمهر النسابين بعض الصحابة.

ونظراً لاهتمام العرب في العصر الجاهلي بأمور النسب، فقد ألفت الكتب الخاصة بالأنساب وإن كانت قليلة ونادرة. ويذكر فؤاد سزكين في كتابه «تاريخ التراث العربي» إن مما يؤسف له أن عناوين أقدم الكتب المؤلفة في التاريخ العربي القديم وكذلك العلوم الأخرى تذكر نادراً جداً وبطريقة عابرة، فلم تصل إلينا إلا نادراً ولم تذكر إلا عرضاً. ومن أقدم الكتب التي وصلت إلينا عناوينها «أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» و «كتاب الأمثال» تأليف عبيد بن شريه الجرهمي، و «كتاب الأمثال» تأليف صحار، وكتاب «المطالب» لزياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣ هـ[٢].

ثانياً: علو وثقافة العرب في عهد الرسول والخلفاء الراشدين

عهد الرسول عليه الصلاة والسلام

بعث الرسول ﷺ إلى مجتمع أمي غارق في متاهات الجهل والتخلف، يمارس أفراده طقوس الجاهلية والوثنية، ويعبدون الأصنام ويتعاطون الخمر ويلعبون الميسر، ويتمسكون بالعادات السيئة كوأد البنات والتعصب الأعمى والحروب الدامية التي تهلك الحرث والنسل لسنوات طويلة ولأسباب تافهة يمقتها العقل. وكانت الأمية مطبقة على المجتمع العربي القبلي برمته آنذاك، حيث لم يكن بمكة عند مجيء الإسلام إلا عشرة ممن لديهم معرفة بالقراءة والكتابة. وسيطرت الخرافات والأساطير على أفراد

---

(١) ابن النديم. الفهرست. ص ٣٠.

(٢) فؤاد سزكين. اتريخ التراث العربي. جـ ١. ص ٢٨.

المجتمع العربي والتي كان مبعثها الكهنة المستفيدون من تخلف القبائل العربية في العصر الجاهلي.

لقد شخص الرسول عليه الصلاة والسلام سر تخلف المجتمع العربي، فوجده يكمن في جهل أفراده للعلم والمعرفة، وأن القضاء على الأمية ونشر العلم والمعرفة هو السبيل الوحيد لنجاة الأمة من تخلفها المدقع.

من هنا بدأ الرسول ﷺ بالحث على طلب العلم والمعرفة، ومكافحة الأمية بالوسائل المتاحة آنذاك، ومنها أنه عندما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من قريش وغيرهم في غزوة بدر طلب الرسول ممن يتقن الكتابة تعليم عشرة من المسلمين لقاء حريته.

وقد منّ الله على المسلمين بكتابه الكريم الذي حوى العديد من الآيات التي تحث على طلب العلم وتبيّن أهميته وفضله. فقال جل من قائل: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**. فقد افتتح كلامه المجيد بذكر العلم وأهميته وأنه تعالى ذكر أول حال الإنسان كونه علقة وأخر حاله وهي صيرورته عالماً وذلك كمال الرفعة والمكانة السامية. وقال **﴿الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾**. فقد جعل الله العلم علة لخلق العالم العلوي والسفلي.

ومن بين الآيات البينات الواردة في فضل العلم نذكر منها:

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾. ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾. ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾. ﴿وقل ربي زدني علماً﴾. ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾. ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾. ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

يجد المتتبع للأديان السماوية اقتران الدين الإسلامي بالعلم، فبالإضافة

إلى ما جاء في القرآن الكريم من فضل العلم والعلماء من خلال آيات بينات، فقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ تصدح بفضل العلم وتحث المسلمين على طلبه. ومن بين الأحاديث الشريفة نورد التالي: .

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». «اطلبوا العلم ولو في الصين». «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر». «من خرج في طلب العلم فهو خارج في سبيل الله». وقال ﷺ: لعلي عليه السلام: **«يا علي نوم العالم أفضل من عبادة العابد يا علي ركعتان يصليهما العالم أفضل من سبعين ركعة يصليها العابد». «من طلب علماً فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر ومن طلب علماً فلم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر». «ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر». «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه». «ما جمع شيء إلى شيء أفضل من علم إلى حلم».** وقال لعلي عليه السلام: **«كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك». «العلماء ورثة الأنبياء». «الغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة»**

استطاع الرسول ﷺ في فترة قصيرة جداً أن يحول ذلك المجتمع القبلي الأمي إلى مجتمع متعلم، متماسك، بعيد كل البعد عن روح التناحر والعصبية الهوجاء التي كانت تعصف بأفراد المجتمع العربي في عصر الجاهلية. وانطلق أبناء هذا المجتمع بقيمه الإسلامية وبسلاح العلم والمعرفة في عهد الخلفاء الراشدين وما بعدهم يفتحون الأمصار ويعمرون الديار ويبثون تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وعلوم اللغة والعلوم الأخرى بين شعوب العالم الإسلامي.

عهد الخليفتين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وإذا كان عهد الرسول ﷺ أساس الانطلاقة نحو العلم والمعرفة، وأساس الاستعداد والتمهيد لانتشار الدعوة الإسلامية وما صاحبها من قيم عليا، فإن عهد الخلفاء الراشدين بدأ بتثبيت تلك المبادىء والقيم التي تحث على نشر العلم والمعرفة بين المسلمين بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم، وتحثهم على اكتساب العلم والمعرفة من المصادر الأخرى غير الإسلامية

والاستفادة من الحضارات المجاورة.

اندفع العرب في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في توسيع رقعة البلاد الإسلامية، فشملت بلاد الهلال الخصيب وبلاد الرافدين وفارس ومصر وبرقة. وأدى هذا التوسع إلى احتكاك العرب بحضارات لها قيمها وعلومها، فامتزجوا بسكانها واطلعوا على ما وصلوا إليه من علوم في مختلف حقول المعرفة آنذاك. ونهلوا من ثقافات المناطق التي دخلت في حوزة الإسلام، كالثقافة اليونانية المصطبغة بالصبغة الشرقية والسريانية والقبطية والفارسية.

أدى اجتياح الجيوش العربية لمصر وفارس إلى مشاهدة والتعرف على المكتبات لأول مرة في حياتهم مما كان له الأثر الطيب في نفوسهم، خاصة وأنهم يجلون العلم والمعرفة ويكرمون العلماء. وعندما باشروا في بناء وتأسيس المكتبات تأثروا في ذلك بما شاهدوه من مكتبات في فارس، وبنو مكتباتهم على النمط الفارسي مقتبسين منهم طريقة تنظيم المكتبة وتبويبها.

وهذا يلغي ما ورد عن العرب من أنهم قاموا بإحراق كل ما وقع في أيديهم من كتب أو تدمير مكتبات بكاملها كما حدث لمكتبة الإسكندرية. ولتبصير القارىء بذلك نورد بعض ما قيل في ذلك لدحضه بالحجة والبراهين الجلية.

قصة حرق مكتبة الإسكندرية

ورد في «تاريخ مختصر الدول» لأبي الفرج الملطي عند حديثه عن فتح مصر ما نصه: «وعاش يحيى الغراماطيقي إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو، وسمع من ألفاظه الفلسفة التي لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله، ففتن بها. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوماً: «إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها، فما لك به انتفاع فلا نعارضك به، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به». فقال له عمرو: «ما الذي تحتاج

إليه؟». قال: «كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية». فقال عمرو: «هذا ما لا يمكنني أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب». فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: «.. وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتقدم بإعدامها». فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فاستنفذت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب»[1].

ومن أسف شديد أن قصة حرق مكتبة الإسكندرية واتهام المسلمين بها جاءت اول الأمر عن رجل مسلم معاصر لصلاح الدين الأيوبي واسمه عبد اللطيف البغدادي وهو كاتب مشهور. وقد طاف عبد اللطيف البغدادي بعدد من الأقطار الإسلامية ومن بينها مصر، وكتب عن مشاهدها وآثارها وذكر حرق العرب المسلمين مكتبة الإسكندرية قبل أبي الفرج الملطي بعدة سنين وبالتحديد قبل ولادة أبي الفرج ببضع وعشرين سنة حيث ولد أبو الفرج الملطي سنة ٦٢٢ هـ. ويذكر البغدادي في كتابه «الموعظة والاعتبار» قصة حرق مكتبة الإسكندرية بقوله: «ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة، بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها. وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن من عمر رضي الله عنه».

والغريب في الأمر أن بعض المؤرخين العرب أشاروا إلى حرق العرب الكتب التي وقعت في أيديهم أثناء فتوحهم البلدان ومن بينهم حاجي خليفة الذي قال: «ويروى أنهم أحرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد».

ويؤكد جورجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» أن أبا الفرج الملطي السالف الذكر نقل روايته عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو أربعين

---

(١) جورجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. جـ ٣. ص ٤٦. عن كتاب مختصر الدول لأبي فرج الملطي. ص ١٨٠ من طبعة بوك (في أوكسفورد) سنة ١٦٦٣ م.

سنة ويدعى جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم الذي ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ هـ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ. وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء، عثر جورجي زيدان نفسه على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ، وقرأ فيها أثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام أبي الفرج وأكثر تفصيلاً منه(١).

قصة حرق مكتبات فارس ودحضها

يرى جورجي زيدان أن إحراق المكتبات على أيدي المسلمين من الأمور المؤكدة وإن كان ذلك بحسن نية، حيث لا كتاب إلا كتاب الله. وقد اقتبس من كتاب «كشف الظنون» ما يؤكد ذلك، حيث يذكر صاحب كشف الظنون: «أن المسلمين لما فتحوا بلاد الفرس وأصابوا من كتبهم، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن «اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه، أو في النار، فذهبت علوم الفرس فيها»(٢).

لا يمكن تصديق هذه الرواية لصاحب «كشف الظنون» خاصة إذا ما عرفنا أن المسعودي يذكر أنه استعان بكتاب منقول عن الفارسية يبحث في تاريخ الفرس القدماء وفي العلوم عندهم كان فيما مضى من الأيام أحد كتب المكتبة الملكية الفارسية وأخذ وقت الفتوح الإسلامية كغنيمة ثم نقل إلى العربية. وهذا يعني محافظة العرب على الكتب وأخذها غنائم لما لها من قيمة وفائدة.

كما أن رواية طيفور صاحب كتاب «تاريخ بغداد» توضح بقاء الكتب والمكتبات الفارسية سليمة بعد الفتح الإسلامي. ويمكن معرفة ذلك من خلال ما ورد في كتابه المذكور النص التالي: «قال يحيى بن الحسن: إني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين علي بركة إذ دعوت بغلام له

---

(١) جورجي زيدان. المصدر السابق. ص ٤٨.
(٢) جورجي زيدان. المصدر السابق. ص ٥٠.

فكلمته بالفارسية. فدخل العتابي وكان حاضراً في كلامنا فكلم معي بالفارسية، فقلت له أبا عمرو ما لك وهذه الرطانة؟ قال فقال لي: قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التي في الخزانة في مرو وكانت الكتب سقطت إلى ما هنالك مع يزدجر فهي قائمة إلى الساعة. فقال كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشر فراسخ إلى قرية يقال لها ذودر فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً. قال قلت أبا عمرو لم كتبت كتب العجم؟ فقال لي وهل المعاني إلا في كتب العجم، وبلاغة اللغة لنا والمعاني لكم، ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً».

دحض قصة حرق مكتبة الإسكندرية

يبدو أن قصة حرق المسلمين مكتبة الإسكندرية قصة مختلقة لا وجود لها من الصحة، ويمكن تأكيد ذلك من خلال المعطيات التالية:

١ - يعتبر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين أشهر قادة المسلمين وأبرزهم، اتصف بحصافة الرأي والحكمة وحبه للعلم والمعرفة. فهو الذي أشار على أبي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت أهله، فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة ومن صدور الرجال وسلمه إلى أبي بكر، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ وتولى أمرها عمر بن الخطاب إلى أن توفي وسلمها إلى عثمان سنة ٢٣ هـ.

فكيف برجل بذل جهداً كبيراً في المحافظة على القرآن الكريم بجمعه الصحف المدونة لدى الصحابة يأمر بحرق كتب قد يحتاجها المسلمون في أمور دنياهم. ولو أن الخليفة عمر كان كذلك لما جمع القرآن واكتفى بأن يحفظ في صدور الرجال. غير أن جمعه للقرآن يدل دلالة واضحة من أنه رجل يحافظ على النصوص المكتوبة، وضرب لنا مثلاً في ذلك من خلال ما قام به من جهود مضنية بجمعه القرآن. وهو القائل: «يا أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله».

٢ ـ كلف عمر رضي الله عنه ثلاثة من نسابي العرب، وهم عقيل بن أبي طالب وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل بأن يعدوا له جدولاً بالأنساب. وهذا الطلب من الخليفة عمر يعطى دلالة واضحة على مدى حرصه على المحافظة على الأمور الهامة مكتوبة لا محفوظة في الصدور يتناقلها الناس وقد يصيبها التحريف.

٣ ـ ارتبط جمع الشعر العربي القديم حفظاً له من النسيان بالجهود التي بذلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويروى أنه كتب إلى المغيرة بن شعبة المتوفى سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م طالباً إليه أن يسأل الشعراء عما نظموه بعد ظهور الإسلام. كما تم جمع أشعار الأنصار في عهد عمر بن الخطاب[١].

٤ ـ رفض الفرد ج. بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر» قصة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية واستند في رفضه لتلك القصة إلى الأمور التالية:

ـ أن يحيى النحوي الذي اسمه اليوناني حنا فيليبوس توفي قبل فتح العرب لمصر بأكثر من عشرين عاماً.

ـ إن مكتبة الإسكندرية بفرعيها كانت قد احترقت قبل قدوم المسلمين إلى مصر بزمن طويل.

ـ إن أغلب الكتب كانت مكتوبة على رقوق، والرقوق كما هو معروف لا تصلح للوقود[٢].

٥ ـ تؤكد المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» أن حرق العرب مكتبة الإسكندرية ما هو إلا مجرد محض افتراء، فتقول: «وعندما دخل العرب الإسكندرية عام ٦٤٢ م لم يكن هناك، منذ زمن طويل، مكتبات عامة كبيرة. وأما ما اتهم به قائدهم عمرو بن العاص من إحراق مكتبة الإسكندرية، والذي يعبر به حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من

(١) فؤاد سزكين. تاريخ التراث العربي. جـ ٢ (في التدوين التاريخي) ص ٢٥٥.

(٢) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. ص ٢٢.

مناسبة وبعد أبحاث مستفيضة، أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة»[1].

٦ ـ إن قصة حرق مكتبة الإسكندرية من قبل العرب المسلمين لم تظهر إلا بعد مرور ٥٠٠ عام من الحادثة.

٧ ـ المعروف أن مكتبة الإسكندرية كانت تتكون من قسمين وهما البروكيوم والسيرابيوم، وقد أحرق قيصر القسم الرئيسي من المكتبة وهو البروكيوم. وعلى أية حال فقد اختفت المكتبة من الوجود قبل فتح العرب لمصر بأكثر من مائتي سنة.

٨ ـ لم يشر مؤرخو القرنين الخامس والسادس الميلادي إلى وجود هذه المكتبة في تلك الفترة.

وبهذا فإن ما أشيع من قصة حرق العرب مكتبة الإسكندرية ما هي إلا مجرد محض افتراء، خاصة إذا ما عرفنا أن أول من روج إشاعة حرق المكتبة من المؤرخين أبو الفرج الملطي الذي كان أبوه يهودياً وتنصر، فشب أبو الفرج على النصرانية وتشبع بها.

عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

اتسعت رقعة الدولة في عهد عثمان بن عفان واهتم العرب في تلك الفترة بتثبيت دعائم الحكم وتنظيمه، مما جعلهم يصرفون جل أوقاتهم في المحافظة على ما اكتسبوه من أراض جديدة والعمل على بث الدين الإسلامي وتعاليمه القيّمة بين المسلمين الجدد.

عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عالماً فذاً، وحكيماً بارعاً، وفيلسوفاً حاذقاً، وأديباً مفوهاً، نال من البلاغة وقوة الخطابة وسرعة البديهة

(١) زيغريد هونكه. شمس العرب تستطع على الغرب ص ٣٦٣.

ما لم ينله أحد في زمانه. أخذ منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى توليه سدة الخلافة يحث المسلمين على طلب العلم والمعرفة، وأدى ذلك إلى انتشار العلماء والأدباء والخطباء في عصره بشكل لم يسبق له مثيل. وبدأت المدرستان الكوفية والبصرية تلعبان دوراً بالغ الأهمية في الحياة الأدبية واللغوية، وبدأت قواعد اللغة العربية تبرز إلى الوجود في عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كما انتشر الخط العربي بزخارفه وفنونه المختلفة.

وكانت للإمام على عليه السلام جهوداً خاصة في جمع القرآن. ويروي ابن النديم في فهرسته ذلك بقوله: «قال ابن المنادي: حدثني الحسن بن العباس، قال: أخبرت عن عبد الرحمن بن أبي حماد، عن الحكم بن ظهير السدوسي، عن عبد خير عن علي عليه السلام أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه»[1].

ويذكر ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» مقالة للإمام علي في فضل العلم تعتبر من أروع ما قيل في العلم، وتوضح مدى اهتمام علي بالعلم والعلماء. فيذكر ابن عبد ربه ذلك بقوله: «حدثنا أيوب بن سليمان قال: حدثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشمي، عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي، عن أبي مخنف، عن كميل النخعي، قال: أخذ بيدي علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبانة، فلما أصحر [يعني بلغ الصحراء] تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

يا كميل، العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال،

(١) ابن النديم. الفهرست. ص ٥٧.

والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله.

يا كميل، مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ها إن ها هنا لعلماً جماً ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو وجدت له حَمَلةً، بلى أجد لقناً غير مأمون عليه، يستعمله آلة الدين للدنيا، ويستظهر بحجج الله على أوليائه، وبنعمه على عباده، أو منقاداً لحمله الحق ولا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أو مفهوماً باللذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة. كذلك يموت العلم بموت حامليه. اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته؛ وكم ذا، وأين؟ أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله حُجَجَه حتى يودعوها نظراءهم؛ ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى.

يا كميل، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه، شوقاً إليهم. انصرف إذا شئت[١].

ونظراً لأهمية هذه المقالة وما تحمله من معاني سامية فقد ذكرتها العديد من أمهات الكتب العربية التي تعنى بالتراث العربي والإسلامي.

اهتم الإمام علي عليه السلام بنشر العلم بين المسلمين وطالبهم بالاغتراف من مناهله والتسلح به، فهو أفضل وسيلة لبقاء الإنسان وخلوده. وجاءت أقواله وحكمه وخطبه تبين مدى عمق تفكيره وفلسفته الواضحة التي أدت إلى تطوير المجتمع العربي ثقافياً وأدبياً، فبرز في عهده علماء اللغة وجهابذتها وجمهرة من الخطباء والمفكرين.

---

(١) ابن عبد ربه. العقد الفريد. جـ ٢. ص ٨١.

ومن بين ما قاله الإمام علي في فضل العلم نورد التالي:

«أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به». «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه». «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذماً أن يبرأ منه من هو فيه». «قيمة كل امرىء ما يحسنه» وفي هذا الصدد قال شعراً:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

أدوات الكتاب في العصر الإسلامي الأول ـ حتى القرن الثاني الهجري

كان للجهود التي بذلها الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام والصحابة تجاه العلم والمعرفة أثرها البين في رواج حركة الكتابة والتأليف والنسخ وكان العرب في مدن الشمال والجنوب على دراية بالكتابة والتدوين في العصر الجاهلي. واستخدموا في بداية الأمر الكتابة على الصخور ثم انتقلوا للكتابة على الخشب، وأكتاف الإبل، واللخاف وهي حجارة بيضاء رقيقة، والأديم، والرقاع أي القماش، وجريد النخل أو ما يسمى بالعسب.

ودوّن كتاب الوحي وهم علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وطلحة بن الزبير، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، القرآن الكريم مستخدمين في ذلك العظام وجريد النخل والرقاع واللخاف كمادة للكتابة عليها.

وبعد وفاة الرسول ﷺ بوشر بتدوين أحاديثه، حيث نهى عن تدوينها أثناء حياته خوفاً من اختلاط الأحاديث بآيات كتاب الله. وقد تفنن علماء الدين في وضع قواعد وإجراءات خاصة في تقصي الأحاديث وتحقيقها مما مهد لظهور طبقة من المؤلفين والكتاب الذين اهتموا في بادىء الأمر بنقل أحاديث الرسول ومن ثم تناولوا سيرته ومغازيه، وانتقلوا بعد ذلك للكتابة

عن التاريخ، كتاريخ العرب والمسلمين وأخبار الفتوح. وتطورت نوعية الكتابة فيما بعد فأخذوا يكتبون في حقول المعرفة المختلفة كالعلوم والطب والفلسفة إضافة إلى اللغة والأدب والفقه.

ويعتبر القرن الثاني الهجري منطلقاً حقيقياً للكتابة والتأليف، حيث نقل العرب فيه صناعة الورق من الصين، واستُخدم كمادة للكتابة في جميع الأقاليم العربية والإسلامية، مما زاد من حركة الكتابة والتأليف، وأخذت الكتب تنتشر بشكل واسع بين أبناء المجتمع الإسلامي. وقد أدى ذلك إلى تأسيس المكتبات على اختلاف أنواعها ووظائفها بالمدن والأقاليم الإسلامية.

ولإعطاء المزيد من المعلومات عن صناعة الورق وأدوات الكتابة وحركة النشر، فقد تم تخصيص الفصل السادس من الكتاب لهذا الفرض بعنوان «الوراقة ونمو المكتبات الإسلامية».

الفصل الثالث



المكتبات الرئيسية في العصور الإسلامية

أقبل العرب على اقتناء الكتب إقبالاً قل نظيره، وبذلوا المال الكثير من أجل الحصول على الكتب القيمة القمينة بالاقتناء حتى بات الثراء يقاس بعدد ما يقتنيه الفرد من كتب أو مخطوطات سواء كانت عربية الأصل أم مترجمة. وازداد عدد العلماء في البلدان الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند بشكل باتت الشوارع تزدحم بهم، وأصبح من المألوف مشاهدة مجموعات من الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الدين والفلاسفة يتجولون في شوارع المدن وطرقها وجميعهم يسعون إلى طلب العلم والحكمة. وعجّ بلاط الأمراء بالشعراء والفلاسفة والأدباء والعلماء، يرددون قصائد الشعراء ويناقشون المسائل الفلسفية والفقهية والأدبية بحرية تامة.

وقد بلغ شغف العرب باقتناء الكتب لدرجة أنهم عند انتصارهم على دولة ما فإنهم يطالبون كشرط أساسي لعقد الصلح تسليم ما بحوزة البلد المنهزم جميع الكتب والمخطوطات التي تقتنيها تلك البلاد. وهذا ما فعله هارون الرشيد بعد أن احتل عمورية وأنقره، طالبهم بتسليم ما لديهم من مخطوطات إغريقية قديمة.

لم يتوقف العرب على شراء الكتب أو ترجمتها بل حاولوا الكشف عن كثير منها وبخاصة تلك التي دفنت أو أهملت أو طمست. ومن أمثال ذلك عثورهم على كتاب في فنون الحرب وجد في قبو مظلم في الإسكندرية. كما يورد ابن النديم عثور أبي إسحاق بن شهرام على مكتبة ضخمة في معبد قديم بآسيا الصغرى بقوله: «سمعت أبا إسحاق بن شهرام يتحدث في مجلس

عام، أن ببلد الروم هيكلاً قديم البناء، عليه باب لم يُرقط أعظم منه بمصراعين حديد، كان اليونانيون في القديم، وعند عبادتهم للكواكب والأصنام، يعظمونه ويدعون ويذبحون فيه. قال: فسألت ملك الروم أن يفتحه لي، فامتنع عن ذلك لأنه أغلق من وقت تنصرت الروم. فلم أزل أرفق به وأراسله شفاهاً عند حضوري مجلسه. قال: فتقدم بفتحه، فإذا ذلك البيت من المرمر والصخر العظام ألواناً، وعليه من الكتابات والنقوش ما لم أر ولم أسمع بمثله كثرة وحسناً. وفي هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يحمل على عدة أحمال، وكثر ذلك حتى قال ألف جمل. بعض ذلك قد أخلق، وبعضه على حاله، وبعضه قد أكلته الأرضة»[1].

وهكذا بلغ شغف العرب بجمع الكتب واقتنائها حداً لم تبلغه شعوب العالم السابقة. ففي القرون الأربعة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة بلغت الحياة العلمية والأدبية والثقافية ذروتها في الأمصار الإسلامية، ونمت ظاهرة تأسيس المكتبات نمو العشب في الأرض الطيبة. فقد بلغ عدد المكتبات العامة في بغداد في القرن الثامن الهجري قرابة مئة مكتبة. كما انتشرت المكتبات في معظم المدن العربية الرئيسية وأصبح بإمكان العامة من الشعب الاستفادة من خدمات تلك المكتبات.

وتذكر زيغرد هونكه أن مكتبة صغيرة بمدينة النجف في العراق، كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلد، بينما لم تحو أديرة الغرب سوى اثني عشر كتاباً ربطت بالسلاسل، خشية ضياعها. وتضيف زيغرد هونكه قائلة: «ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة في مدينة الريّ إلى عشرة فهارس كبيرة. وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة، بل إنه كان لكل مستشفى يستقبل زواره، قاعة فسيحة صفت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء»[2].

وهكذا كوّن العرب بعد اقتنائهم الكتب مكتبات هامة جلبت أنظار العديد من العلماء والأدباء والفلاسفة آنذاك. واتسم كل عصر من العصور الإسلامية بنمطية معينة في تأسيس المكتبات وجمع الكتب.

(١) ابن النديم. الفرست. ص ٥٠٥.

(٢) زيغرد هونكه. شمس العرب تستطع على الغرب. ص ٣٨٦.

ومن بين أهم العصور الإسلامية التي تكوّنت فيها المكتبات، العصر الأموي، والعباسي، والفاطمي، والأندلسي. وسيتم الاقتصار في هذا الفصل على المكتبات الرئيسية فقط والتي تكونت في العصر العباسي والفاطمي والأندلسي. وهي المكتبات التي ترعاها الدولة وتقدم خدماتها كمكتبة عامة ووطنية وفق المصطلح الحديث، ويؤمها الجميع بما في ذلك وزراء الدولة، كما يهتم بأمرها الخليفة نفسه.

أما بالنسبة للعصر الأموي فهو بمثابة المخاض لبناء وتأسيس المكتبات الرئيسية في العصور الإسلامية اللاحقة.

أولاً: المكتبات في العصر الأموي:

بدأ الاهتمام بالكتاب يأخذ دوره في عصر الدولة الأموية بشكل بات يمثل منعطفاً جديداً في الحياة الفكرية الإسلامية آنذاك. ومن المعروف أن الاهتمام بالكتاب من حيث جمعه أو ترجمته أو تأليفه لم يكن بالزخم الذي كان عليه في العصر العباسي، وإنما كان العصر الأموي البداية للانطلاقة الكبيرة التي حدثت في العصر العباسي. ويقال أن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٦٠ هـ/ ٩٨٠ م أول من اهتم بحركة التأليف، فأمر بتدوين التاريخ.

ويذكر محمد كردعليّ في كتابه «الإسلام والحضارة العربية» أنه بعد أن استتب الأمر لمعاوية قال: «أردت أن عندنا من يحدّثنا عما مضى من الزمن هل يشبه ما نحن فيه اليوم. فقيل له أن بحضرموت رجلاً معمراً اسمه أمد بن أبد الحضرمي فأتى به؛ وورد عليه من اليمن أيضاً عبيد بن شرية من المعمرين. وكان آية باهرة في معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة، فأمر معاوية كتّابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه معاوية، وكان يعجب مما يلقيه عليه عبيد ويستزيده من إيراد الشعر لأن الشعر كما قال معاوية ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم في الجاهلية، فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية.

ساهمت حركة النقل من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية في توفير العديد من الكتب، ومن ثم الاتجاه إلى تأسيس المكتبات في عصرها الأول. ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية أول من اهتم بترجمة الكتب الأجنبية ونقلها إلى العربية. وكان خالد من محبي العلم والمعرفة وله شغف كبير بجمع الكتب على اختلاف أنواعها وإن كان اهتمامه الرئيسي ينصب على اقتناء الكتب العلمية. وشاءت الظروف أن تخدم خالد في مجال جمعه الكتب وترجمتها، حيث أجبر على التنازل عن العرش مما دفعه إلى دعوة المتعلمين من الإغريق والعرب من الإسكندرية وعهد إليهم بترجمة كل ما وقع في يده من كتب يونانية ومصرية إلى اللغة العربية.

ويؤكد ذلك ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٠ هـ بقوله: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلم. خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح بالعربية. وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»[١].

ويعتبر خالد بن يزيد أول المسلمين الذين قاموا بتأسيس أول مكتبة في العالم الإسلامي، كما تعتبر مكتبته أول مكتبة متخصصة أيضًا. فقد اهتم بجمع الكتب العلمية ودرس علم الكيمياء على أيدي الرهبان الإغريق. وزار ابن النديم المكتبة التي أسسها خالد فوجد فيها العديد من الكتب القيمة في الكيمياء وعلم الفلك والطب والجراحة.

واهتم عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ بجمع الكتب، وتعتبر المكتبة الملكية في عهده والتي كانت تضم جزءاً من مكتبة خالد بن يزيد من بين أهم المكتبات التي أسست في العصر الأموي. واستمر إنشاء المكتبات منذ ذلك الحين وكانت تضم دواوين شعراء ما قبل الإسلام التي تصف انتصاراتهم وأنسابهم وحياتهم الاجتماعية. كما انصرف العلماء إلى وضع الكتب الجديدة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والسير وعلم الكلام.

---

(١) ابن النديم. الفهرست. ص ٥٠٣.

وفي عهد هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ ترجمت السجلات السريانية الرسمية إلى العربية، وأمر رئيس كتابه ويدعى سالم بترجمة تاريخ ملوك الفرس في عام ١١٣ هـ. وكانت تتضمن هذه الكتب المترجمة التصاوير الشخصية لأولاد الملوك الفرس[١].

نبغ في العصر الأموي العديد من العلماء والكتاب الذين ساهموا بعلومهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية وإثراء المكتبات التي تأسست فيما بعد في العصر العباسي. ومن بين أولئك عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ الذي اهتم بتدوين سيرة الرسول وأحاديثه. وعلى الرغم من كون عروة من العلماء البارزين إلا أنه جمع كتبه وأحرقها كلها لشعوره بالذنب من جمعه كتباً أخرى غير القرآن الكريم.

كما أنجب العصر الأموي ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ، وهو ألمع الفقهاء والمحدثين والمؤرخين، حيث أرّخ مغازي الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد انصرف إلى دراسة العلم والكتابة وجمع الكتب وقراءتها، حتى أن زوجته خاطبته ذات يوم بقولها: «والله إن هذه الكتب أقبح في نظري من ضرة تعيش معي في الدار».

ثانياً: العصر العباسي (بيت الحكمة في بغداد):

ازدهرت المكتبات على اختلاف أنواعها في العصر العباسي بشكل أضحى يمثل سمة الدولة والشاهد على تقدمها وتحضرها. وأسسوا المكتبات الكبيرة كصرح ثقافي شامخ لأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي مما يعكس مدى أهمية المكتبات عند الخلفاء العباسيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد أدخلوا علومًا جديدة في حقل الإنسانيات والجغرافيا والكيمياء والطب وعلم الفلك. وازدهرت حركة التأليف والترجمة وتأسست المدارس والمعاهد، واهتم الخلفاء من بني العباس بالعلم والأدب، وأخذوا يقربون العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة. ومما زاد من نهضتهم العلمية وحركة رواج الكتاب التوصل إلى صناعة الورق في عهد هارون الرشيد.

---

(١) محمد رستم ديوان. المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط. المورد. م ٩. ع ٤ (١٩٨١) ص ٢٨٥.

قرب هارون الرشيد مشاهير المؤلفين والأدباء آنذاك مثل الأصمعي المتوفى سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م النحوي، وعيسى بن يونس الصوفي، وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م، وإبراهيم الموصلي الموسيقي، وجبرائيل بن يخيشوع المتوفى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م الذي امتهن الطب. وكان يحيى بن خالد البرمكي الذي يعتبر بمثابة رئيس وزراء هارون الرشيد، انتدب السفراء إلى الهند لدعوة مشاهير الأطباء والفلاسفة للعمل في بلاط هارون الرشيد.

أنشأ هارون الرشيد المتوفى سنة ١٩٤ هـ/ ٧٨٦ م مكتبة «بيت الحكمة» في بغداد وهي أول مكتبة عامة وأكاديمية تقام في البلاد الإسلامية. وزوّدها الخليفة هارون الرشيد بكل ما نقل إلى العربية من كتب الطب وعلم النجوم والفلك، وما ألّف في مجال العلوم الإسلامية. وأمر هارون الرشيد بأن تضاف إلى مقتنيات مكتبة بيت الحكمة جميع الكتب التي جمعها أبو جعفر المنصور، بالإضافة إلى الكتب التي جمعها بنفسه من كتب الروم.

وأصبحت بغداد في عهد الرشيد قبلة طلاّب العلم والمعرفة من جميع الأمصار الإسلامية، يرحلون إليها ليكملوا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون. فهي المدرسة العليا، وبمثابة الجامعة لطلاب العلوم الدينية والعربية. وكان فيها كبار الفقهاء والمحدثين واللغويين والنحويين والقراء الذين ما برحوا يلقون دروسهم ومحاضراتهم على طلبتهم في المساجد التي كانت بمثابة مدارس أو جامعات حسب المصطلح الحديث.

ويذكر الشيخ محمد الخضري بك في كتابه «الدولة العباسية» إنه قلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ من علمائها. ويضيف بقوله: «ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات. فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصائبة وغيرهم»[١].

---

(١) محمد الخضري بك. الدولة العباسية. جـ ١. ص ١٣١.

وبتولي المأمون بن هارون الرشيد المتوفى سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٢ م سدّة الحكم تطورت مكتبة بيت الحكمة ونمت وأصبحت أكبر مركز ثقافي في العالم ككل. وقد عرف المأمون بغزارة علمه وسعة إطلاعه وحبه للفلسفة والأدب وبقية العلوم الأخرى. وكان مغرماً بجمع الكتب ونقلها من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، وانشغل في عهده جمهرة من العلماء والمترجمين المسلمين والمسيحيين وغيرهم في ترجمة الكتب اليونانية والرومانية والفارسية والهندية. واستمرّ في إرسال البعثات إلى بلدان مختلفة للحصول على الكتب، وإحضار العلماء والمترجمين والبحاثة للعمل بقسم الترجمة بمكتبة بيت الحكمة.

وكان على رأس أولئك المترجمين في بيت الحكمة الطبيب النسطوري حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م الذي ترجم إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية، وإلى اللغة العربية تسعاً وثلاثين رسالة منقذاً بفضل ترجمته بعض مؤلفات جالينوس من الفناء. كما ترجم كتب المقولات والطبيعة، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية، وطيماوس، والقوانين لأفلاطون، وعهد أبقراط، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس، وكتاب الأربعة لبطليموس، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية. وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين بن إسحاق على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً[١].

عمل المأمون على توسعة مكتبة بيت الحكمة لتستوعب الكميات الكبيرة من الكتب والمخطوطات التي أمر المأمون بجمعها ومن بينها سجلات أيام الجاهلية عند العرب، وشعر العرب القدامى والرسائل والوثائق. وازدحم قصر المأمون بكبار الأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين قدموا من مختلف أرجاء المعمورة. وأغدق الأموال الطائلة على المؤرخين والفلاسفة والنحويين وجامعي الحديث. وذكر ذلك القاضي صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» بقوله: «لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم، عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن أبي

---

(١) ول ديورانت. قصة الحضارة. جـ ١٣. ص ١٧٨.

جعفر المنصور، تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همّته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلّفهم أحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذّ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء المحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في زمانه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهّدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها».

أسس المأمون ما نستطيع أن نطلق عليه أكاديمية الترجمة، وقد أشار النص السابق للقاضي صاعد الأندلسي إلى ذلك وبوضوح. ومن بين من عملوا مترجمين ببيت الحكمة أبو يحيى بن البطريق وهو أحد علماء الإغريق. وكذلك حنين بن أسحق الذي تمت الإشارة إليه سابقاً وكان أبوه صيدلياً من قبيلة العبادين التي تسكن الحيرة المركز التجاري القديم في الفرات. وتعلم اللغة الإغريقية في آسيا الصغرى حتى أتقنها، كما تعلّم الفارسية على يد أمهر معلمي البصرة، أما الآرامية فقد كان يعرفها ويتحدث بها منذ طفولته، هذا بالإضافة إلى إجادته التامة للغة العربية. وقد أجاد النقل إلى اللغة العربية، فهو في ترجمته لا يستبدل كلمة بأخرى، بل يصب المعاني بوضوح وفن ودقة في قالب عربي. وكان النقل يتم في السابق من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية فلما أتى حنين جعل النقل يتم مباشرة من اليونانية إلى العربية. ومن بين المترجمين أيضاً ابن ماسويه المتوفي سنة ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م.

أدّى وجود كوكبة من المترجمين البارزين بمكتبة بيت الحكمة في بغداد إلى تشجيع المأمون في الاستمرار في طلب المزيد من الكتب من الخارج. فقد طلب المأمون من صاحب جزرية قبرص أن يحصل على جميع الكتب اليونانية الموجودة في الجزيرة. وكانت الكتب اليونانية قد جمعت في بيت في الجزيرة ومنع الناس من الإطلاع عليها. وإزاء طلب المأمون جمع صاحب الجزيرة رجاله وعلماء جزيرة قبرص وأبلغهم بطلب المأمون. فكان جوابهم الرفض، إلا مطراناً أشار عليه أن يسلم المأمون جميع الكتب دونما تردد. وعندما سئل عن سبب موافقته على إرسال الكتب، أجاب المطران أن هذه العلوم العقلية ما دخلت على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها. فوافق صاحب الجزيرة على رأي المطران وأرسل الكتب إلى المأمون الذي سرّه ذلك كثيراً.

ويروي ابن النديم في «فهرسته» ما يشابه الرواية السابقة بقوله: «فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم. فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حولوه إليه، أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل: إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم»[١].

من هنا كانت مكتبة بيت الحكمة عبارة عن مقر للترجمة والتأليف والنسخ والمطالعة والدرس. وكان يتردد عليها للبحث والتأليف الفيلسوف الكندي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م، ومحمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة ٨٥٠ م، ويحيى بن أبي منصور الموصلي، والفضل بن نوبخت، وأولاد شاكر، وابن إسحاق وغيرهم.

ضمت مكتبة بيت الحكمة الكتب على اختلاف أنواعها، منها كتب التراث الإسلامي والسير والتراجم والكتب العلمية والفلكية، وكتب الكيمياء والطب والجبر، وكتب الفلسفة والأدب. كما احتوت المكتبة على مرصد

(١) ابن النديم. الفهرست. ص ٥٠٤.

فلكي ومخطوطات ومصورات بلدانية. وقسمت المكتبة إلى أقسام منها أماكن لخزن الكتب حيث يستطيع طلاب العلم استعارة ما ينشدونه من كتب ومؤلفات، كما خصصت بعض غرف المكتبة للمطالعة والمناظرة والنقاش. وأفردت أماكن للنقل والترجمة. وخصص جناح لكل لغة، كما خصص قسم للتأليف والاستنساخ والتجليد والتذهيب.

ووصف ول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» بيت الحكمة بأنها مجمع علمي، ومرصد فلكي ومكتبة عامة. أنفق في إنشائها مائتي ألف دينار (نحو ٩٥٠,٠٠٠ دولار أمريكي). وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. ويقول ابن خلدون أن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزّت بها أرجاؤه والتي تشبه في أسبابها ـ وهي انتشار التجارة، وإعادة كشف كنوز اليونان ـ وفي نتائجها ـ وهي ازدهار العلوم والفنون ـ نقول إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوروبية التي أعقبت العصور الوسطى[١].

لم يتوقف دور بيت الحكمة على اقتناء الكتب وحركة الترجمة والمناظرات والمناقشات والندوات فقط، وإنما تعدى ذلك إلى رصد الأجرام السماوية وتسجيل نتائج تلك الأرصاد. كما حقق علماء العرب في كشوف بطليموس ودرسوا كلف الشمس، ورصدوا مواضعها. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون بشيء إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية. وكانوا يسيرون في بحوثهم ودراساتهم وفق قواعد علمية خالصة.

ولخّص الشيخ محمد الخضري بك عهد المأمون بقوله أنه من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأمرين: الأول أن المأمون نفسه اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو. فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية، فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشره. والثاني ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين[٢].

---

(١) ول ديورانت. قصة الحضارة. جـ ١٣. ص ١٧٨.

(٢) محمد الخضري بك. الدولة العباسية. جـ ١، ص ١٩٦.

ويمكن إرجاع أسباب اهتمام المأمون بالعلم والمعرفة إلى تأثره بشخصية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أحد أئمة آل البيت، الذي لازمه المأمون في طوس بخراسان فترة طويلة. وقد عرف الإمام علي بن موسى الرضا بغزارة علمه وقوة بيانه وتضلعه في أمور الفقه واللغة، ومعرفته بالفلسفة مما أدى بالمأمون إلى أن ينصبه ولياً لعهده.

ثالثاً: العصر الفاطمي (دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة):

بلغ الاهتمام بالمكتبات ذروته في عهد الفاطميين، وأصبحت القاهرة من أكبر المراكز الثقافية في العالم. ومارس الفاطميون دوراً مميزاً في نشر الثقافة وتطويرها فأسسوا في مصر المكتبات التي باتت تتفوق بضخامتها وأهميتها على سائر المكتبات في العالم الإسلامي بما في ذلك مكتبة بيت الحكمة في بغداد.

وفي بداية الأمر أسس الخليفة العزيز بالله الفاطمي (توفي سنة ١٩٩٦م) مكتبة ضخمة في قصره بالقاهرة ضمت العديد من المخطوطات والكتب بلغت حسب بعض المصادر ٢٠٠ ألف مجلد، وتقدرها مصادر أخرى بزهاء ٦٠٠ ألف مجلد، ومن ضمنها ٢٤٠ نسخة من القرآن الكريم مزينة ومجلدة بشكل نفيس، بالإضافة إلى ١٨٠٠ مخطوطة حول العالم القديم[(١)]. وكانت الكتب الأخرى تشمل الشريعة والتجويد والنحو والتاريخ والسير والفلك والكيمياء.

وتصف المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه في كتابها «شمس العرب تستطع على الغرب» اهتمام الخليفة بالمكتبة وما اقتنته من كتب بقولها: «ولا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفة العزيز في القاهرة، حتى خليفة قرطبة، الذي بعث رجاله وسماسرته في كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتب فيزيد روائع مكتبته، أنّى له أن يصل إلى ما فعله العزيز! لقد حوت مكتبة العزيز ١,٦٠٠,٠٠٠ مجلد، فكانت بذلك أجمل وأكمل دار للكتب ضمت ٦٥٠٠ مخطوطة في الرياضيات و١٨٠٠٠ مخطوطة في الفلسفة. ولم يمنع هذا قط

---

(١) الكسندر ستيتشفيتش. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص ٢٤٢.

ابنه من بعده، حين اعتلى العرش، من أن يبني مكتبة ضخمة فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعة إلى جوار المكتبة القديمة»[1].

وعلى الرغم مما قام به العزيز من جمع أعداد ضخمة من الكتب ووضعها في مكتبته الكبيرة، فإن ما قام به الحاكم بأمر الله من اهتمام شديد بالمكتبة ومحتوياتها فاق الجميع، وجعلت منه أعظم رجال التاريخ الذين اهتموا بأمور الكتاب والمكتبات على الإطلاق.

فقد أنشأ مكتبته التي أطلق عليها دار العلم أو دار الحكمة في عام ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة، ونقل إليها جميع الكتب التي كانت في القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها. ومن أجل جعلها أكثر جاذبية فقد فرشت وزخرفت جدرانها، وعلقت على أبوابها وممراتها الستائر. وخصص لها الخدم والعمال والموظفون الذين يقومون بخدمات الإعارة والتنظيم فيها.

ويوضح المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) في كتابه المشهور «الخطط المقريزية» أقسام المكتبة التي تتألف من قسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن الكريم، وثالثاً للمنجمين، وقسم رابع لأصحاب النحو واللغة، وقسم آخر للأطباء. وأباح الخليفة الحاكم بأمر الله المطالعة فيها لجميع الناس.

وتعتبر مكتبة دار العلم من بين أهم المكتبات العامة والأكاديمية التي أسست في فجر التاريخ. وكان الغرض من تأسيسها مساعدة سائر طبقات المجتمع في التعليم والتحصيل مما جعلها معهداً أكاديمياً بكل ما للكلمة من معنى. وقد أجرى الأرزاق للأطباء والمنجمين والقراء واللغويين والنحويين ووفّر لهم ما يحتاجونه من حبر وورق وأقلام. كما شجع على إقامة المناظرات بين رجال العلم واللغة وكان يحضر بنفسه جانباً من المناظرات التي قد تصل إلى الجدل المستحكم والخصام. وفعل الحاكم بأمر الله في تكريم المناظرين كما كان يفعل المأمون بأن خلع عليهم الخلع.

---

(١) زيغرد هونكه. شمس العرب تستطع على الغرب. ص ٣٨٧.

ووصف الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش مكتبة دار العلم بالقاهرة وما تقدمه من خدمات تجاه شرائح المجتمع آنذاك بقوله: «وقد تحولت دار الحكمة القاهرية أيضاً إلى مكان يلتقي فيه العلماء، وفي مكتبتها كان يمكن للعلماء والمترجمين والمهتمين أن يجدوا ما يحتاجون إليه من كتب في كل فرع من فروع العلم. وكان يمكن لأي شخص أن يدخل إلى مكتبة «دار الحكمة»، بينما كانت تقدم للقراء بالمجان الأوراق والأقلام والمحابر. وقد كان هناك خطاطون يختصون بنسخ الكتب والإكثار منها، إلا أن العدد الأكبر من كتب المكتبة كان يأتيها مع القوافل من المدن الأخرى»[1].

اقتنت دار الحكمة أو دار العلم مئات الآلاف من الكتب في مختلف العلوم، في الفقه واللغة والرياضيات والفلسفة والحديث والتفسير والفلك والكيمياء والطب وغير ذلك من علوم مختلفة. ونظراً لأهمية المكتبة التي أسسها العزيز في قصره والمكتبة التي أسسها الحاكم بأمر الله ابن العزيز وهي دار العلم، فقد اشتبه الأمر على البعض فاعتبروا أن مكتبة العزيز هي المكتبة التي أسسها الحاكم بأمر الله.

والواقع أن مكتبة العزيز كانت أضخم من بقية المكتبات التي أسست في العصور الإسلامية السابقة وبصورة خاصة مكتبة بيت الحكمة في بغداد. وعندما تولى الحاكم بأمر الله العرش بنى مكتبته الضخمة ونقل إليها جميع الكتب التي كانت تابعة لمكتبة أبيه، مما جعلها أضخم مكتبة في ذلك العصر. لهذا لم تبالغ زيغريد هونكه في حديثها عن مقتنيات المكتبتين بقولها: «وفي القاهرة رتب مئات العمال والفنيين في مكتبتي الخليفة مليونين ومئتين من المجلدات، وهو ما يعادل عشرين ضعفاً مما حوته مكتبة الإسكندرية الوحيدة في عصرها»[2].

ومما يؤكّد ضخامة مقتنيات مكتبة دار العلم ما ذكره المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) بوصفه المكتبة: «وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر

(١) الكسندر س. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص ٢٤٣.

(٢) زيغرد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. ص ٣٥٣.

العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك». كما بهرت المكتبة جربرت فون أورياك الذي ارتقى كرسي البابوية في روما سنة ٩٩٩ م باسم البابا سلفستروس الثاني وقال متحسرّ: «إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد في رومة له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة. وأنّى لنا أن نعلم الناس ونحن في حاجة لمن يعلمنا، إن فاقد الشيء لا يعطيه»[1].

ومما لا شك فيه أن الحاكم بأمر الله أعطى عناية خاصة لدار العلم بالقاهرة وأرادها أن تكون أزهى مكتبات عصره من حيث المبنى والمحتوى والخدمات التي تقدمها. ولكي يضمن الحاكم بأمر الله سير الخدمات بالمكتبة فقد أعد ميزانية خاصة بها بلغت ٢٠٩ دنانير في السنة، وهو مبلغ ضخم إذا ما قيس بتلك الفترة. ويذكر الدكتور محمد ماهر حمادة في كتابه «المكتبات في الإسلام» نقلاً عن المقريزي في كتابه «الخطط المقريزية» تفصيلاً شاملاً للبنود التي تم توزيع ميزانية المكتبة عليها وفق التالي:

ثمن الورق للنسخ	٩٠ ديناراً
راتب الخازن	٤٨ ديناراً
راتب الفراشين	١٥ ديناراً
راتب المشرف على الحبر والورق والأقلام	١٢ ديناراً.
لإصلاح الكتب وترميمها	١٢ ديناراً
ثمن الماء	١٢ ديناراً
ثمن الحصر العبداني	١٠ دنانير
ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥ دنانير
ثمن طنافس في الشتاء	٤ دنانير
أجرة وترميم وصيانة الستارة	١ دينار[2]

(١) زيغرد هونكه. نفس المصدر. ص ٣٥٣.

(٢) محمد ماهر حماده. المكتبات في الإسلام. ص ١٥٨.

رابعاً: العصر الأندلسي (مكتبة قرطبة):

بدأ تأسيس المكتبات في الأندلس يشق طريقه بعد أن تهيّأت الظروف والأسباب المطلوبة لإنشائها. فبعد أن توطدت أركان الدولة الأموية في الأندلس، نعمت البلاد بحركة فكرية نشطة، وأخذت رياح التغيير تهب على الأدب نتيجة تغير البيئات والمناخات. واستطاع المزاج الأندلسي أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة ويزيد من رقة الشعر وعمق العواطف وهي استجابة لمفاتن الطبيعة الجديدة. كما عنى أهل الأندلس بالفقه واللغة مما زاد في رواج حركة الكتابة الأدبية هناك.

لم يتوقف النشاط الفكري في الأندلس على أمور الفقه واللغة فقط، بل اتجه إلى الاهتمام بمسائل الفلسفة والتي يرجع الفضل في إثارتها إلى ابن مسرة القرطبي الذي كان يرأس في عام ٩٠٠ م حلقة من الطلاب والمريدين، كانت تجتمع إليه في إحدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل قرطبة. ونشأت في بقية المدن الأندلسية حلقات على غرار حلقة قرطبة، ظلت تنعقد حتى القرن الثالث عشر[١].

وعرفت قرطبة فقه اللغة على يد القالي (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م)، كما اهتم الأندلسيون بالتاريخ وبلغ ذلك ذروته عند بزوغ نجم محمد بن القوطية، وهو من المعاصرين للقالي كأحد أكبر كتاب التاريخ في العصر الأندلسي، والذي أرّخ وقائع الفتح الإسلامي.

ويذكر كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» اهتمام عرب الأندلس بأمور الطب والعلوم الطبيعية بقوله: «فقد حاول المغاربة التحرر من سلطان التقليد المشرقي. والواقع أن الأندلس عرفت في عهد عبد الرحمن الثالث، ترجمة جديدة لنظريات ديسقوريدس في الأدوية المفردة، وضعت على أساس نسخة يونانية أرسلت إليه من القسطنطينية. وكان ولده الحكم الثاني نصيراً صادقاً للعلم والعلماء»[٢].

---

(١) كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٣٠١.

(٢) كارل بروكلمان. المصدر السابق. ص ٣٠٢.

أثار تأسيس المكتبات في بغداد وغيرها من الدول الإسلامية ولعاً خاصاً في الأندلس وكان أعظم المولّعين بتأسيس المكتبات وجمع الكتب الحكم الثاني (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م) الذي اشتهر بشدة ميله للقراءة والاطلاع. وكان محباً للعلم وأهله، شديد الرغبة في جمع الكتب حتى أنه عين في المدن الأندلسية والسورية والمصرية وفي بغداد وفارس وخراسان مجموعات من الموظفين والتجار لجمع الكتب النادرة مهما علا ثمنها، فجمع من الكتب النادرة والمتنوعة ما لم يجمعه غيره من الملوك. وتذكر المصادر التاريخية أنه حينما انتهى أبو الفرج الأصبهاني (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م) من كتابة مؤلفه الشهير «الأغاني»، انتدب الحكم رسولاً خاصاً ليسجل هذا الكتاب في مكتبته في بادىء الأمر قبل استنساخه وتوزيعه، وتم له ما أراد وجلب إلى مكتبة الحكم بقرطبة.

أنشأ الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة فيما بين عامي ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ م ـ ٩٧٦ م مكتبة قرطبة وأنفق عليها الأموال الطائلة وجلب إليها الكتب من جميع الأمصار. وحاول الحكم أن يجعل من مكتبته هذه مكتبة متميزة في مقتنياتها، فصرف بسخاء ودون تردد على شراء الكتب. كما حصل على كتب كتبت خصيصاً لمكتبته واستنسخت الأعداد الكبيرة من الكتب لهذه المكتبة، ومن بينها كتاب أوقات الصناعات الذي ألفه أبو الحسن عريب بن سيد وكتبه في قرطبة عام ٩٦١ م، ثم نقّح وترجم إلى اللاتينية من قبل دوزى في عام ١٨٧٣ م[١].

وكان الحكم شغوفاً بقراءة الكتب حتى قيل إنه قرأ معظم مقتنيات مكتبته وكتب تعليقاته في صدر كل كتاب[٢]. كما كان شغوفاً بتنظيم المكتبة وتصنيفها وتزيينها بالزخارف الفنية وترتيبها، فعين عدداً من المجلدين المهرة لتجليد الكتب التي كتبت بحروف من الذهب وزينت بالتصاوير الجميلة. وبلغ عدد الكتب التي ضمتها المكتبة قرابة ٤٠٠,٠٠٠ كتاب، وهذا ما أورده ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) والمقريزي (المتوفى سنة

---

(١) محمد رستم ديوان. المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط. المورد. م ٩. ع ٤ (١٩٨١) ص ٢٨٨.

(٢) منصور محمد سرحان. الكتاب والمكتبات. ص ١٣٥.

٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م). ويقول ابن خلدون وابن الآبار، أنه بالإضافة إلى عدد الصفحات التي دوّنت فيها أربعمائة ألف كتاب من كتبه في مختلف المواضيع، فإن دواوين الشعر فقط قد غطّت ثمانمائة صفحة من فهارس المكتبة.

ونعت رينهارت دوزي في كتابه «تاريخ المسلمين في أسبانيا» الحكم المستنصر بأنه فريد من نوعه من حيث اقتناء الكتب النادرة بقوله: «لم يسبق أن تولى حكم اسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن جميع أسلافه كانوا رجالاً مثقفين، وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم، فإن أحداً منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم»[١].

أما الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش في كتابه «تاريخ الكتاب» يصف الحكم بأنه يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتنورين العرب، جمع في مكتبته الكتب النادرة التي اشتراها بأثمان عالية. ويخلص إلى القول بأنه كان هناك جيش من الخطاطين والمزخرفين والمجلدين الذين كانوا يعملون لحاجات المكتبة، بينما تمكن العاملون في المكتبة من وضع فهرس لها في ٤٤ مجلداً[٢].

لم يقتصر وجود المكتبات في قرطبة فحسب بل كانت منتشرة في بقية المدن الأندلسية كغرناطة وأشبيلية وملاقة. وبالإضافة إلى تلك المكتبات التي كانت تؤسس في المدن وتستخدم كمكتبات عامة، كانت هناك مكتبات خاصة للأدباء والعلماء، منها ما هي إسلامية بحتة ومنها ما هي يونانية بيزنطية أو عبرية أو غيرها وذلك بحكم سياسة التسامح التي اتبعها العرب أثناء حكمهم الأندلس. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت قرطبة لفترة طويلة المركز الرئيسي للثقافة في الأندلس.

وما ينطبق على الأندلس من حيث وجود مكتبات في مدنها المختلفة، ينطبق على العصر العباسي. فعلى الرغم من كون مكتبة بيت الحكمة في بغداد المكتبة الرئيسية هناك، إلا أن وجود المكتبات العامة بمدن وأقاليم

---

(١) رينهارت دوزي. تاريخ المسلمين في إسبانيا. ص ٤٥٤.

(٢) الكسندر ستيبتشفيتش. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص ٢٤٥.

الدولة العباسية من الثوابت الدالة على اهتمام الحضارة العباسية بتأسيس المكتبات. فقد أسست في مدينة الموصل عام ٩٥٠ م مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين، يجد فيها من يؤمها حاجته من الكتب والورق. كما أسست مكتبة عامة كبيرة في مدينة الري، بلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مقتنيات المكتبة عشر مجلدات. وفي البصرة أسست مكتبة عامة أيضاً أخذت على عاتقها تشجيع طلبة العلم عن طريق منحهم رواتب وإعانات أثناء دراستهم. وبنيت مكتبة عامة في خوارزم وأخرى في مرو، وتذكر المصادر التاريخية أن ياقوت الحموي قضى في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع مادة كتابه «معجم البلدان».

نهاية المكتبات الرئيسية

مما يؤسف له أن المكتبات الرئيسية التي تأسست في العصر العباسي والفاطمي والأندلسي انتهت بشكل مفجع تماماً وضاعت الجهود التي بذلت في جمع الكتب والمخطوطات. وكانت عوامل الحقد والجهل السبب الرئيسي في تدمير ونهب وضياع المكتبات الإسلامية الرئيسية.

فمكتبة بيت الحكمة في بغداد التي ظلت ردحاً من الزمن تمثل الإشعاع الفكري العربي الإسلامي، دمرت على أيدي المغول عند اجتياحهم بغداد، وألقوا بجميع محتوياتها في نهر دجلة وجعلوا منها جسراً تعبر عليه خيولهم وجيوشهم إلى الضفة الأخرى من النهر. وتحول ماء دجلة إلى اللون الأسود وهو لون المداد المستخدم آنذاك. كما دمر المغول بالإضافة إلى مكتبة بيت الحكمة ست وثلاثون مكتبة عامة أخرى في بغداد.

ويذكر القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» تدمير بيت الحكمة بقوله: «ويقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب، وذهبت معالمها،

وأعفيت آثارها»[1]. وهكذا دمّر أكبر مركز ثقافي في العالم الإسلامي بعد أن أعطى الكثير وكان كعبة العلماء والفلاسفة والبلغاء والمفكرين لعشرات السنين.

ولم يكن مصير دار العلم أو دار الحكمة بالقاهرة أفضل من مصير بيت الحكمة في بغداد. فقد تعرضت هي الأخرى للخراب والدمار، وضاعت مئات الآلاف من الكتب حين وقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك في عام ١٠٦٨ م وهو العام الذي شهدت فيه مصر مجاعة كبيرة ولم يستطع الخليفة آنذاك من دفع رواتب الجند، مما دعاهم للهجوم على المكتبة والعبث بمحتوياتها، فأتلفوا كتبها. وعمد العبيد إلى الكتب المجلدة تجليداً فاخراً فنزعوا أوراقها واتخذوا من جلودها نعالاً وأحذية لهم. وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر قضى على البقية الباقية من المكتبة وذلك إما بتوزيعها على رجاله أو بعرضها للبيع بأي ثمن كان.

وأشار القلقشندي إلى نهاية هذه المكتبة بقوله: «وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم... ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم (أي دولة الخلفاء الفاطميين) بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل»[2].

وتؤكد العديد من المصادر التاريخية أن صلاح الدين الأيوبي كان سبباً في القضاء على هذه المكتبة، حيث يذكر المقريزي «بأنه في عهد صلاح الدين قضى على خزائن مكتبات الفاطميين وتشتت ما تبقى من كتبها بيعاً على تجار الكتب وعطاء لبعض العلماء والقضاة فضلاً عما أهداه صلاح الدين للمقربين إليه. وحدد لبيع الكتب يومين كل أسبوع واستمر عشر سنوات تولى تجار الكتب والدلالون مهمة البيع تحت أمرة قراقوش. وقد نال

(١) أحمد بن علي القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. جـ ١. ص ٥٧٣.
(٢) القلقشندي. صبح الأعشى. جـ ١. ص ٥٧٣.

القاضي الفاضل مائة ألف مجلد من المكتبة، كما نال عماد الدين الأصفهاني نصيباً من الكتب بلغ ثمانية جمال». وبهذا أطفئت الشعلة التي كانت محط رجال العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين لفترة من الزمن.

أما مكتبة قرطبة التي اهتم بها الحكم الثاني وبذل الأموال الطائلة في جمع الكتب والمخطوطات وزودها بأنفس الكتب والإصدارات التي كانت تؤلف حينذاك، فقد تعرضت هي الأخرى للحرق والتخريب والدمار بعد وفاة الحكم الثاني. والغريب في الأمر أن رجال المسلمين هم الذين ساهموا في القضاء على هذه المكتبة. فعندما تولى المنصور بن أبي عامر حدث لغط حول مقتنيات المكتبة ونوعيات الكتب التي تضمها المكتبة من قبل بعض الفقهاء والعامة، فأمر بحرق كتب الفلسفة والعلوم إرضاء للفقهاء والعامة. وبهذا خلت المكتبة من كتب ساهمت في بناء النهضة التي شهدتها الأندلس. وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر بيعت مجموعات كبيرة مما تبقى من الكتب لتوفير المال أثناء الحصار الذي ضربه البربر على قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري. وعندما دخل البربر قرطبة عنوة قاموا بنهب ما تبقى من كتب فيها. وبهذا أسدل الستار على أكثر المكتبات الإسلامية انتقاء للكتب الثمينة والنادرة.

الفصل الرابع



المكتبات الخاصة ومكتبات المساجد والمدارس

المكتبات الخاصة ومكتبات المساجد والمدارس

أولاً: المكتبات الخاصة:

المكتبات الخاصة هي المكتبات التي يملكها الأفراد يتصرفون بها حيث يشاؤون، وتوجد في المنازل وإن كان البعض أفرد لها مباني خاصة، كما أن بعضهم حوّل مكتبته الخاصة بمبناها المنفرد إلى مكتبة عامة، وسيأتي ذكر بعضها في سياق هذا الفصل.

وجدت المكتبات الخاصة منذ بداية الدولة الأموية، ويرجعها البعض الآخر إلى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين. وإذا ما تبحّر المرء في هذا الموضوع فإنه سيجد أن ما أطلق عليه مكتبة في عهد الرسول والصحابة، عبارة عن مجموعات من الصحف التي احتفظ بها أصحابها وتدور معظمها حول القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. فقد كان لسعد بن عبادة الأنصاري (المتوفى سنة ١٥ هـ) عدة كتب فيها أحاديث الرسول، ولعبد الله بن مسعود مصحفه المشهور وصحف أخرى بخطه. كما تجمّعت لأبي هريرة كتب كثيرة فيها أحاديث رسول الله. وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحفظ كتبه وصحفه في صندوق له حلق، ولابن عباس (المتوفى سنة ٦٨ هـ) كتب كثيرة بلغت حمل بعير. وكان لعبد الله بن عمر كتب إذا خرج إلى السوق نظر فيها، ولعروة بن الزبير كتب كثيرة. ويروى أنه كانت لعمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤ هـ) كتب ملأت له بيتاً حتى السقف، ثم إنه تنسّك فأحرقها.

تأسست المكتبات الخاصة بمفهومها الصحيح في بداية العصر الأموي على يد خالد بن يزيد بن معاوية الذي سبق أن تم التطرق إلى مكتبته في الفصل الثالث. غير أن ازدهار المكتبات المتخصصة حدث إبان العهد العباسي نظراً لاهتمام خلفاء بني العباس بالمكتبات واحترامهم لرجال العلم والمعرفة، وبصورة خاصة في عصر المأمون الذي أصبحت في عهده ممارسة جمع الكتب وحفظها في المنازل سمة عامة في بغداد.

وحيث أن عدد المكتبات الخاصة في العصور الإسلامية لا يمكن حصرها، فإن الحاجة تستدعي ذكر بعض أهمها، معتمدين في ذلك على مصادر هامة بالتاريخ الإسلامي مثل «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و «معجم الأدباء» لياقوت الحموي، و «الفهرست» لابن النديم، إضافة إلى المصادر الحديثة ومن بين أهمها «المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصادرها» للدكتور محمد ماهر حماده، والعدد الخاص من مجلة المورد العراقية الذي صدر بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري وغير ذلك من مصادر مختلفة.

١ ـ مكتبة داود بن نصير الطائي (المتوفى سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م):

قدم أبو سليمان داود بن نصير الطائي بغداد أيام المهدي العباسي ثم قفل راجعاً إلى الكوفة. وقد سمع الحديث والفقه وعرف النحو وعَلِمَ أيام الناس وأمورهم، ثم تعبّد وتحولت حياته إلى العزل والانفراد. ووصفه ابن حبان بقوله: «الطائي العابد أبو سليمان، ممن تخلى وتزهد وتجرد وتعبد، وقنع بلزوم الفقر الجهيد، والحمل على النفس بالجهد الشديد».

كانت له مكتبته الخاصة التي ضمت العديد من الكتب في الفقه واللغة والأدب، غير أنه عمد إلى تفريقها في مياه نهر الفرات، وقيل إنه دفنها في الأرض وفي ذلك ضياع لثروة فكرية كبيرة.

٢ ـ مكتبة سفيان الثوري (توفي سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م):

ولد أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري سنة سبع وتسعين للهجرة من قبيلة مضر العربية، وكان من حفظة الحديث وغيره من العلوم. وقد كتب له المهدي العباسي عهداً على قضاء

الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم ودفعه إليه، فأخذ العهد ورمى به في نهر دجلة واختفى من ساعتها وظل مستتراً عن المهدي في البصرة حتى وافاه الأجل المحتوم.

امتلك سفيان الثوري مكتبة كبيرة فيها كتب مختلفة من الفقه والعلوم الأخرى. ويروي الخطيب بإسناده عن أبي الأسود الحارثي قال: خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه أي دفنها. فلما أمن، أرسل إليَّ والي يزيد بن توبة المرهبي، فجعلنا نخرجها فأقول يا عبد الله، وفي الركاز الخمس، وهو يضحك فأخرجنا تسع قمطرات كل واحدة إلى هاهنا، وأشار إلى أسفل ثدييه قال، فقلت له: أعرض لي كتاباً فحدثني به.

ومما يؤكد صحة هذه الرواية ما ذكره ابن الجوزي عن دفن سفيان الثوري لكتبه قائلاً: إن من دفن كتبه لسبب مشروع كأن يكون فيها أشياء مدخولة لم يستطع تمييزها ولم يشأ نشرها فلا بأس به ومثل ذلك فعل سفيان الثوري وبعض الأكابر.

٣ ـ مكتبة الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م):

أسس الواقدي مكتبته الخاصة وكانت تضم ٦٠٠ رف صفّت عليها أنواع الكتب المختلفة. ويذكر ول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» أنه لما مات الواقدي ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه. كما يذكر ابن النديم في «الفهرست» نفس المعلومة قائلاً: قال محمد بن إسحاق: قرأت بخط عتيق قال: خلف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين. وكان له غلامان مملوكان يكتبان له الليل والنهار. وقبل وفاته ببضع سنوات باع جزءاً من كتبه بألفي دينار، كما يذكر ابن النديم أن للواقدي كتب مصنفة يبلغ عددها ٣٨ كتاباً.

٤ ـ مكتبة علي بن يحيى المنجم (عاصر المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ وحتى المتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ):

أنشأ علي بن يحيى المنجم مكتبته التي أطلق عليها خزانة الحكمة في بلدته قرقر قرب بغداد. وكان واسع الإطلاع محباً للعلم والمعرفة جامعاً

للكتب على اختلاف ألوانها. عاصر عدداً من الخلفاء العباسيين منذ خلافة المأمون وحتى المتوكل. ويروى أن أبو معشر المنجم سمع بهذه المكتبة أثناء ذهابه إلى الحج فقصدها، وتعجّب مما تحويه من كنوز المعرفة فبقي فيها حتى شغلته عن الحج.

٥ ـ مكتبة الفتح بن خاقان (عاش زمن المتوكل الذي توفي سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م):

بنى الفتح بن خاقان وزير المتوكل مكتبة ضخمة خاصة به وعيّن عليها أحد محبي الكتب يدعى علي بن يحيى. وتعتبر هذه المكتبة فريدة من نوعها، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين. وقال عنه أبو هفان: ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم: الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحاق القاضي.

وكان الفتح بن خاقان يحضر لمجالسة المتوكل فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة، أخرج الفتح بن خاقان كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل. وكان بالإضافة إلى جمعه الكتب وحبه قراءتها، ألّف بعض الكتب منها: كتاب اختلاف الملوك، وكتاب البستان، وكتاب الروضة والزهر، وكتاب الصيد الجارح.

٦ ـ مكتبة الكندي (توفي سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م):

ولد أبو يوسف يعقوب الكندي فيلسوف العرب الأول في الكوفة في بداية القرن التاسع الميلادي وتلقى تعليمه في الكوفة وبغداد، حيث درس الحساب والهندسة والرياضيات، وعلم الطبيعة، والطب، والمنطق، والفلسفة، والفلك، إلى جانب إحاطته بالثقافات اليونانية، والفارسية، والهندية.

أدى تنوع ثقافته ونبوغه إلى إثراء المكتبة العربية آنذاك بمؤلفاته المتنوعة في معظم مجالات المعرفة المتداولة حينذاك، حتى قال عنه بايكون أنه وابن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس. كما عدّد ابن النديم في الفهرست مؤلفات الكندي وفق مواضيعها كالتالي: ٢٢ كتاباً في الفلسفة، و١٩ في النجوم، و١٦ في الفلك، و١٧ في الجدل، و١١ في الحساب، و٢٣ في الهندسة، و٢٢ في الطب، و١٢ في الطبيعيات، و٨ في الكريات، و٧ في

الموسيقى، و٥ في تقدمة المعرفة، و٩ في المنطق و١٠ في الإحكاميات، و١٤ في الإحداثيات، و٨ في الإبعاديات. وله رسائل في إلاهيات أرسطو، وفي معرفة قوى الأدوية المركبة، وفي المد والجزر، وفي علّة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو.

وتعتبر مكتبة الكندي من أنفس المكتبات، اهتم بجمعها واستنساخها اهتماماً بالغاً، فكانت مطمح نظر معاصريه لتنوعها وتفرّدها بالكتب النادرة، كما كانت سبب الوشاية به والضغينة عليه. وكان أكثر الناس حسداً له محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر فدبّرا له مكيدة فباعداه عن المتوكل وأخذا كتبه فأفرداها في خزانة خاصة سميت الكندية. غير أن الكندي استرد مكتبته بعد أن ظهر زيف ما ادّعاه عنه أبناء موسى بن شاكر.

٧ ـ مكتبة أبي بكر ابن الأنباري (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م):

كان أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الحسن الأنباري كثير الحفظ واسع الإطلاع محب لجمع الكتب وقراءتها. وقد أكدت العديد من المصادر العربية مدى سعة أفقه وإطلاعه وقدرته الخارقة على الحفظ. وذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين، كما ذكره ابن العماد في شذرات الذهب وياقوت الحموي في معجم البلدان وغيرهم كثيرون. وذكره ابن النديم في فهرسته بقوله: «وكان أفضل من أبيه وأعلم، في نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ، ومع ذلك ورعاً من الصالحين، لا يعرف له حرمة ولا زلة. وكان يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب، وأكثر ما كان يمليه من غير دفتر ولا كتاب».

وقال عنه أبو علي القالي: «كان يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف بيت... وكان أحفظ من تقدّم من الكوفيين». ومما روي عنه أنه كان يملي في ناحية من مسجد الكوفة ـ حيث هو من أهلها ـ وأبوه من ناحية أخرى. ومرض فعاده أصحابه، فرأوا من انزعاج والده أمراً عظيماً، فطيّبوا نفسه، فقال: كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون وأشار إلى خزانة مملوءة كتباً. وهذا يدل دلالة واضحة على وجود مكتبة كبيرة للأنباري. وهو بالإضافة إلى جمعه الكتب وحفظها وقراءتها كان مؤلفاً، ألّف قرابة تسعة عشر كتاباً ذكرها ابن النديم في فهرسته.

٨ ـ مكتبة ابن العميد (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م):

لم يكن ابن العميد عالماً وبحاثة ممتازاً وذا ذكاء وقاداً فقط، وإنما أضاف إلى هذا حباً شديداً للكتب. فقد أنشأ مكتبة رائعة وعهد بها إلى المؤرخ المشهور ابن مسكويه. وقد حوت مكتبة ابن العميد كل علم وكل نوع من أنواع المعارف والآداب يحمل على مائة وقر.

وظل ابن العميد طوال حياته يتعهّد المكتبة بعنايته ويغذيها بالكتب التي يشتريها أو يأمر باستنساخها. وكان ضنيناً بكتبه حريصاً عليها بل ويفضلها على المال. ومما يبرهن شدة حرص ابن العميد على اقتناء الكتب وجلبها من أماكن مختلفة وعشقه لها وتفضيلها على المال ما ذكره ابن مسكويه عند تعرضه لغارة جند آل سامان أو الخراسانية كما كان يطلق عليهم على الري ونهبها بقوله: رجع الخراسانية إلى معسكرهم، فلما أصبحوا باكروا الحرب ودخلوا المدينة من ناحية أجران وفيها دار الأستاذ الرئيس ـ لقب ابن العميد ـ فحاربهم فكسرهم، ثم كثروا عليه ولم يول منهم وحامى عنه الأتراك الذين معه وانكسر الأستاذ الرئيس ومعه السلار فرجعا إلى دار الإمارة واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة جامعة إلى إن أتى الليل وانصرفوا، وكان إليَّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرض لها. فلما انصرف إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء فأنفذ إليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة، واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعز عليه منها وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والأدب يحمل على مائة وقر وزيادة. فلما رآني سألني عنها فقلت هي بحالها لم تمسها يد، فسرى عنه وقال أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض عنها، ورأيته قد أسفر وجهه وقال باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني ففعلت وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله.

٩ ـ مكتبة عضد الدولة السلطان البويهي (٩٧٦ م تقريباً):

كان عضد الدولة شاعراً كبيراً وأستاذاً في الأدب، أسس مكتبة ضخمة وأمر بجمع الكتب في مختلف المواضيع مبتدأ من العهود الإسلامية حتى عصره. ويذكر المقدسي هذه المكتبة بقوله أن عضد الدولة بنى داراً ضخمة

في شيراز لم ير مثلها لا في الشرق ولا في الغرب ضمّت مكتبة ضخمة مؤثثة بشكل جيد وتضم فهارساً لمحتوياتها المختلفة. وكان العلاّمة البشاري قد وصف هذه المكتبة أيضاً بقوله إنها فردوس على الأرض، إنها مكتبة رائعة ضمن قصره جمعها في بناية ضخمة ملأت بعدد كبير من الكتب. وبها غرف منفصلة وفهارس خصصت لكل موضوع، وفيها قيم يشرف عليها وأمين للصندوق وبضعة موظفين آخرين. ولم يكن يسمح بالدخول إليها من المدخل الرئيسي، وأظن ذلك خوفاً على مقتنياتها التي جمعها بعد جهد جهيد وبذل الأموال الطائلة من جهة، ومن جهة أخرى ربما خصّص المدخل الرئيسي له ولكبار القوم ليعطي للمكتبة مكانتها وأبهتها.

١٠ ـ مكتبة بني عمار (القرن العاشر الميلادي):

أسس بنو عمار مكتبة لهم في طرابلس بسورية وكانت مكتبة خاصة تحمل اسمهم، غير أنهم جعلوها عامة فيما بعد وفتحت أبوابها لكل قارىء ومتحدث ودارس وباحث دون استثناء. وتعد هذه المكتبة من بين أشهر المكتبات الخاصة بل والعامة في التاريخ الإسلامي بعد المكتبات الرئيسية. وتكاملت مقتنياتها بنهاية القرن العاشر الميلادي، فقد جمعوا لها الكتب الكثيرة والمخطوطات النادرة. وكانت الكتب في معظمها مجلدة تجليداً فاخراً ومزخرفة بالذهب والفضة.

وقدر شوشتري في كتابه «مختصر الثقافة الإسلامية» وجيبون أن عدد مقتنيات مكتبة بني عمار بلغ ثلاثة ملايين كتاب، وكان بها أكثر من مائة وثمانين ناسخاً يتناوبون العمل بالمكتبة ليلاً ونهاراً.

وانتهت هذه المكتبة بنفس الطريقة التي انتهت بها المكتبات الرئيسية التي تم ذكرها في الفصل الثالث. فقد تعرّضت كتب المكتبة للنهب والحرق من قبل الصليبيين عند احتلالهم طرابلس سنة ٥٠٢ هجرية الموافق ١٠٠٩ م. ويؤكد ذلك جيبون بقوله: أن عدد كتبها ٣٠٠٠,٠٠٠ مجلد أحرقها الإفرنج.

ويروى أن سبب حرق مكتبة بني عمار توهم الصليبيين أن جميع محتويات المكتبة هي نسخ من القرآن الكريم. فعند احتلال طرابلس دخل

أحد القساوسة مبنى المكتبة وكان يرافق الحملة الصليبية وتجوّل في القاعة المخصصة للقرآن الكريم. فاعتقد أن المكتبة بجميع قاعاتها مخصصة للقرآن الكريم فقط، فأعطى أوامره بحرقها. وأدى حرق المكتبة إلى القضاء على الكثير من الكتب والمراجع القيّمة وضياعها مما أوجد فراغاً في المكتبة العربية الإسلامية آنذاك.

١١ ـ مكتبة سابور (أسست عام ٣٨٢ هـ):

تنسب مكتبة سابور إلى مؤسسها أبو نصير سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي الذي أسسها في عام ٣٨٢ هجرية في مدينة بغداد. وقد ذكرها المؤرخون تحت أسماء مختلفة، فذكرها ابن الأثير تحت اسم «خزانة الكتب» وذكرها ابن تغرى بردى، وأبو العلاء المعري، وياقوت الحموي تحت اسم «دار العلم»، وهذا يعني تحوّل المكتبة من مكتبة خاصة إلى مكتبة عامة. وكانت ظاهرة تحويل المكتبات الخاصة إلى مكتبات عامة منتشرة في القرن الرابع الهجري نتيجة لتردد العامة عليها وبصورة خاصة طلاب العلم والمعرفة. وقد سبق الحديث عن تحويل مكتبة بني عمار إلى مكتبة عامة تعميماً للفائدة.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن عدد الكتب التي احتوتها مكتبة سابور أو دار العلم كما عرفت فيما بعد زهاء ١٠٤٠٠ كتاب، من بينها مئة مصحف بخطوط بني مقلة.

تحولت مكتبة سابور بعد أن تم تجهيزها وتزويدها بالكتب والمصادر المتوافرة حينذاك إلى مكتبة عامة وسمح لكل من يريد الاطلاع والدرس والبحث التردد عليها، فأصبحت بذلك قبلة الشعراء والأدباء والباحثين والعلماء من جميع أنحاء البلاد الإسلامية. ومما ساعد في سرعة تحويلها إلى مكتبة عامة القرار الذي اتخذه سابور بوقفها على العلماء.

أشرف على المكتبة مجموعة من العلماء والأدباء المرموقين ومن بينهم الشريف المرتضى وعبد السلام البصري وأبي منصور الخازن. وكان أبو العلاء المعري من بين المترددين على هذه المكتبة وكون علاقة حميمة مع بعض مشرفيها ومن بينهم أبي منصور الخازن وعبد السلام البصري وذلك

أثناء إقامته في بغداد لمدة عام وبعض العام. وجاء ذكر المكتبة تحت اسم دار العلم على لسان أبي العلاء المعري في «سقط الزند»:

أخازن دار العلم كم من تنوفه   أتت دوننا فيها العوازف واللغط

استمرت مكتبة دار العلم تقدّم خدماتها لرجال العلم والمعرفة طيلة تسع وستين سنة، بعدها خمدت جذوتها بسبب ألسن اللهب والنيران التي طالتها أثناء الحريق الذي شبّ في محلة الكرخ عام ٤٥١ هـ. وبهذا خسرت البلاد والعباد مكتبة من بين أهم المكتبات الإسلامية، وداهم العامة مبنى المكتبة أثناء الحريق ونهبوا ما تبقى من الكتب سالماً لغرض بيعها وقبض ثمنها. وعبّر البعض بقوله وربما بغرض اقتنائها وهذا احتمال ضعيف جداً، إذ لا يمكن أن يكون النهب من شيم الأدباء والمثقفين.

١٢ ـ مكتبة الصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م):

الصاحب بن عباد هو إسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب ابن عباد لأنه كان يصاحب ابن العميد. وكان محباً للكتب مولعاً بها لدرجة فاقت أستاذه ابن العميد. وامتاز الصاحب بن عباد بالإضافة إلى حبه جمع الكتب وقراءتها، بالبلاغة والفصاحة والشعر. وألّف كتباً منها: كتاب الأعياد وفضائل النيروز، وكتاب الإمامة، وكتاب ديوان الرسائل، وكتاب الزيدية، وكتاب الكافي في الرسائل، وكتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبّي، وكتاب مختصر أسماء الله عزّ وجلّ وصفاته، وكتاب الوزراء.

وتذكر المصادر التاريخية أن مكتبته كانت تضم حمولة أربعمائة جمل، ويستدل على هذا الرقم عند اعتذاره لصاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني الذي أرسل إلى الصاحب بن عباد في السر يستدعيه ويرغبه في خدمته فقال: «كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الأنام ذكري، ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقالي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر».

وكان الصاحب بن عباد يصطحب معه حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها أثناء سفره وتنقلاته إلى أن وصله كتاب «الأغاني» فاكتفى به أثناء سفره.

١٣ ـ مكتبة أحد الكوفيين (مجهول الاسم) [عاصرها ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ]:

هذه مكتبة أحد الكوفيين المولعين بجمع الخطوط القديمة التي ترجع في بعضها إلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. ونظراً لأهمية هذه المكتبة ومحتوياتها وما تضمه من كتب ومخطوطات في غاية الأهمية، وكذلك لتبصير القارىء بالمواد التي كان يكتب عليها في فترات متقدمة من التاريخ الإسلامي، فقد رأيت أن أسرد قصّة هذه المكتبة كما ذكرها ابن النديم في صفحة ٨٨ من فهرسته.

قال محمد بن إسحاق: كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين، ويعرف بابن أبي بعرة، جماعة للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة من الكتب الغريبة في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة، فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده، وخائفاً من بني حمدان. فأخرج إليَّ قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب، وقصائد مفردات من أشعارهم، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم.

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة ذهب عني اسمه، كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة، وأنه لما حضرته الوفات خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال من محمد بن الحسين عليه ومجانسة بالمذهب فإنه كان شيعياً، فرأيته وقلبتها فرأيت عجباً. إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها.

وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً إثر واحد، يذكر فيه خط من هو، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض، ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي كرّم الله وجهه، ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبد الله بن حانى ، ورأيت فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين.

ورأيت عدة أمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه، وبخط غيره من كتّاب النبي عليه الصلاة والسلام، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني والأصمعي، وابن الإعرابي، وسيبويه والفراء، والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم.

ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصيني ترجمتها هذه فيها كلاً في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر. وتحت هذا الخط بخط عتيق، هذا خط علان النحوي. وتحته هذا خط النظر بن شميل. ثم لمّا مات الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه، فما سمعنا له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف، هذا على كثيرة بحثي عنه.

١٤ ـ مكتبة القاضي أبي المطرف بن فطيس (٤٠٢ هـ):

اهتمّ القاضي ابن فطيس بأمرين، أوّلهما جمع الكتب على اختلاف أنواعها، والأمر الآخر اهتمامه الشديد بمبنى المكتبة وتنظيمها. فقد أنشأ لها مبنى خاصاً تتوافر فيه مواصفات مبنى المكتبة الحقيقية، حيث بنيت بطريقة تتيح رؤية الكتب مستريحة في أماكنها عبر أبهاء أنيقة على الجدران، ورؤية السقف والجدران وكلها طليت باللون الأخضر وهو اللون المفضل إلى نبلاء قرطبة.

أما بالنسبة لمقتنياتها فقد جمع فيها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره، وعيّن ستة من الوراقين يعملون فيها بصورة مستمرة، حيث يقومون بنسخ ما يريده. وكان يشرف على المكتبة أبو عبد الله بن معالي الحضرمي الذي أعدّ فهارس المكتبة وقام بنسخ الكتب النادرة. ويروى أنه عندما قررت أسرته بيع كتبه، استمر البيع في مسجده مدة عام، وبلغت حصيلة ما بيع منها أربعون ألف دينار.

١٥ ـ مكتبة نوح بن منصور (وجدت في عهد ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م):

أسس نوح بن منصور في بخارى مكتبة كبيرة ليس لها نظير. فقد قال

عنها ابن خلكان أن جميع أنواع الكتب الخاصة بالصناعات والفنون والعلوم كانت مخزونة في مكتبته الأنيقة والغنية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المكتبة قد ضمّت من الكتب الفريدةِ من نوعها ولا يوجد لها نظير في أية مكتبة أخرى.

وزار ابن سينا هذه المكتبة وتعرّف على محتوياتها فأعجبته كثيراً وقال عنها: «ومكتبة نوح بن منصور عبارة عن بناية ضخمة تحتوي على العديد من الغرف وفي كلِ غرفة العديد من الرفوف التي رتبت عليها الكتب من جميع الأصناف». ويضيف ابن سينا قائلاً: «سألت الأمير يوماً الإذن لي في دخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن لي. فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب منضّدة بعضها على بعض. ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها. وعرفت مرتبة كل رجل في علمه، فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها».

ويؤكد هذه الرواية الكسندر ستيبتشفيتش في كتابه «تاريخ الكتاب» فيذكر قول ابن سينا «شاهدت هناك فهرس المؤلفات اليونانية القديمة وطلبت ما كنت أريده. وهناك شاهدت كتباً قد لا يعرف أحد عنها شيئاً ورأيت كتباً لم أرها في أي مكان آخر لا سابقاً ولا لاحقاً. قرأت هناك تلك الكتب وأخذت بعض الملاحظات».

١٦ ـ مكتبة ابن حزم الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م):

يعتبر أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم أشهر ممثلي الثقافة العربية في الأندلس، وكان شاعراً ومحدثاً وخطيباً. قال فيه أبو مروان بن حيان: «كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، ما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة» كما ذكره ابن بشكوال بقوله: «كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة، مع توسعة في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار».

أحب ابن حزم الكتب كثيراً وجمع منها أعداداً جمّة، كما ألّف العديد من الكتب، وأضحت مكتبته من بين أضخم المكتبات الخاصة في الأندلس. وكان أبوه من علماء قرطبة، نظم الشعر واهتمّ بالكتابة، وعيّن وزيراً في الدولة المروانية. وبعد وفاة والده بسنتين أكره على مغادرة قرطبة إلى المرية. غير أن الأمور لم تبق على حالها، فقد رضي عنه وعيّن وزيراً أكثر من مرة، وتقلّد آخر وزارة له في عهد هشام الثالث الملقب بالمعتمد.

اهتم ابن حزم بأمور التأليف والكتاب وجمع الكتب وقراءتها وفضلها على الأمور السياسية. ونظر له البعض بعين الحقد والحسد وأثاروا حوله الجدل مما حدا بالمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية أن يأمر بحرق كتبه علناً. وهنا أنشد أبياته المعروفة يبدي فيها حسرته ولوعته بفقدانه كتبه، موجهاً تلك الأبيات إلى صاحب إشبيلية.

دعوني من إحراق رق وكاغد — وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي — تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي — وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

١٧ ـ مكتبة عبد السلام بن عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست الجبلي البغدادي المدعو بالركن. (عاصر الخليفة العباسي الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م):

اهتم عبد السلام بجمع الكتب الخاصة بعلوم الأوائل ومن بينها كتب الفلسفة واقتنى في هذا المجال وغيره كتباً كثيرة. ونالت مكتبته شهرة واسعة خاصة وأنه جمع من كتب الفلسفة والكتب العلمية ما لم يجمعه غيره، مما أدّى إلى التشهير به وإحراق كتبه.

ويذكر القفطي في كتابه «تاريخ الحكماء» قصة إحراق مكتبة عبد السلام عندما برزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع في بغداد يعرف بالرحبة لحرقها بحضور الجمع الجم. ففعل ذلك وكلّف بتنفيذ هذه المهمة عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم. وذكر الركن عبد السلام صاحب المكتبة بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً فيتكلّم عليه ويبالغ في ذمّه

وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار.

ومن بين الكتب التي ألقيت في النار كتاب «الهيئة» لابن الهيثم حيث أشار ابن المارستانية إلى الدائرة التي مثل بها ابن الهيثم الفلك وهو يقول: وهذه هي الداهية الدهماء والنازلة الصمّاء والمصيبة العمياء، ثم خرقها وألقى الكتاب في النار.

ثانياً: مكتبات المساجد:

مثّل المسجد الثقل السياسي والاجتماعي في صدر الإسلام والعصور التالية له. واستخدم المسجد كمعهد تعليمي ومركز إشعاع فكري، ومقر للقيادة تنطلق منه الجيوش لمقارعة الأعداء، وفيه تُلقى الخطب على اختلاف أنواعها كالخطب التي تحث الناس على الزهد والتقوى أو الخطب التي تدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله. وبهذا أصبح المسجد يمثّل القلب من الجسد بالنسبة للأمة الإسلامية.

وعرفت العرب أيام الجاهلية الأندية فكانت تمارس فيها اجتماعاتهم ومناقشة أوضاعهم وخططهم الخاصة بالتجارة وحمايتها. كما كانت الأندية بمثابة أماكن للّهو والتسلية. وكانوا يعقدون فيها الندوات لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار، كما كانت شؤون العامة من بين ما يتناولونه بالبحث والمناقشة. غير أنهم في فراغهم يعمدون إلى قول الشعر والمفاخرة والمسامرة. ومن بين أشهر الأندية حينذاك نادي قريش ودار الندوة بجوار الكعبة.

وعندما جاء الإسلام برز المسجد كأهم مؤسسة له واستعيض به عن بقية الأماكن الأخرى. وترجع أهمية المسجد للدور الذي يلعبه في الحياة الفكرية والسياسية والدينية والاجتماعية. ففيه تقام الفرائض وتعقد الندوات على اختلاف مواضيعها، كما تتم فيه مبايعة الخلفاء والأمراء، وفيه تتخذ القرارات الخاصة بأمور الحرب والسلم.

برز المسجد كمدرسة لطلاب العلم والمعرفة، وأخذ المعلمون يلقون دروسهم على طلبتهم الذين يلتفون حولهم في حلقات، ومن هذا أخذ

مصطلح الحلقات. وكان التعليم في المساجد بالمجان، وحصل المعلمون والطلاب على مرتباتهم ونفقاتهم من أموال البر والصدقات. ومن المدهش حقاً أنه بمجرد سماع طلبة العلم بوجود معلم على درجة كبيرة من الشهرة في أحد الأمصار الإسلامية، فإنهم يشدون الرحال إلى بلدة ذلك المعلم. وكانت الدراسة خارج البلاد التي يعيش فيها الطالب ترفع من مكانته بين أقوامه وعشيرته.

ويعتبر الجامع الأزهر بالقاهرة من بين أشهر الجوامع في التدريس. فقد جاء الطلاب من مختلف البلاد الإسلامية للدراسة فيه، وكان لكل طائفة رواق يتجمعون حوله سمي باسمهم كرواق العجم أو الهندية أو المغاربة. كما عقدت الحلقات للدراسة في جامع المنصور ببغداد وجوامع قرطبة وطليطلة وغيرها من الجوامع المنتشرة في البلاد الإسلامية. وكان المعلمون الذين هم في طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج يغتنمون هذه الفرصة فيزورون الجوامع الكبيرة أو المساجد التي على مقربة من طريقهم، فيستمعون لكبار الأساتذة في تلك الجوامع والمساجد.

استمر المسجد ردحاً من الزمن وبالتحديد حتى نهاية القرن الثالث الهجري يمثّل المدرسة الوحيدة لأبناء المجتمع الإسلامي. وكان طلبة العلم يؤمون المساجد من أجل التحاور في أمور دينهم ودنياهم ويلقون المحاضرات، كما كانت ملتقى الأدباء من مختلف التوجهات، وأخذ الوعاظ يقومون بوعظ الناس وإرشادهم وتبصيرهم بمبادىء الدين الإسلامية الحنيف.

أدى هذا الاهتمام إلى إيجاد الآلية التي عن طريقها يتم نيل العلم والمعرفة ألا وهي توفير الكتاب. وبدأ رجال الفقه وعلماء الدين يقومون بتوفير نسخ من القرآن الكريم وكتب الحديث والسير وغيرها. وأخذ المؤلفون يؤلفون كتبهم في المساجد باعتبارها الأماكن التي توفر لهم المناخ المطلوب في الكتابة والتأليف. كما استفاد الكتاب في نسخ العديد من الكتب في المساجد سواء كانت تلك الكتب متوافرة بالمسجد أم تلك التي يحضرونها معهم.

وتتحدث كتب التاريخ والتراجم عن الكثير من العلماء والأدباء والفقهاء الذين اتخذوا من المساجد أمكنة يتزودون منها بالعلوم ويدرسون ويدرّسون

في آن واحد ويؤلفون كتبهم أو ينسخونها. وأدّى تواجد طلبة العلم والمعرفة والمؤلفين والكتّاب والنسّاخ إلى تأسيس مكتبات في المساجد تودع فيها الكتب المختلفة التي تأتي عن طريق التبرع بمفهومنا الحاضر، وكان بعض المؤلفين يؤلفون كتبهم ويضعونها في المسجد كوقف من أجل تعميم الفائدة بين الناس. وبهذا استطاع أولئك المؤلفون من المحافظة على كتبهم بإيداعها بمبنى المسجد.

ومن بين المساجد التي ألحقت بها مكتبات المسجد الجامع بالكوفة الذي زخرت مكتبته بنوادر المخطوطات وكثرة كتب التاريخ والأدب. واستطاع إسحاق بن مرار الشيباني وهو من اللغويين الكوفيين أن يجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة أخرجها في مجلد وجعلها في مسجد الكوفة. واشتهر مسجد الكوفة بكونه مدرسة للقرآن الكريم، وكان عبد الله بن حبيب أوّل من جلس لإقراء القرآن في مسجد الكوفة، وفيه ظهرت مدرسة لتفسير القرآن وكان من أساتذتها سعيد بن جبير الذي استشهد سنة ٩٤ هـ. ومن بين الأمور الثقافية التي كانت تقام في المسجد إنشاد الشعر ونقده والمناظرات في علوم العربية.

وهكذا، عرف المسجد في جميع العصور الإسلامية بأنه محط رحال العلماء والأدباء والطلاب ورجال الفكر والثقافة، مع ما يستلزم ذلك من تخصيص بعض أقسام المسجد وأروقته ليكون مكتبة تضم المراجع والمصادر والمخطوطات والكتب والمصنفات على اختلاف أنواعها والتي قد تعين أولئك العلماء على الدراسة والبحث وإعداد الموضوعات أو ما نسميها الآن المحاضرات التي كانت تلقى على طلبة العلم والمعرفة.

وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين والتجار والأعيان يتنافسون على تقديم الكتب ووقفها على المساجد تبركاً وطلباً للثواب. وفي هذا يذكر المقريزي في خططه أن الحاكم بأمر الله أمر بنقل نصف الكتب التي كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر والباقي إلى مسجده ومسجد المقس. وكان الهدف من تزويد الجامع الأزهر بالكتب هو إعطاء الطلاب الفرصة الكافية للإطلاع والاستزادة خاصة وأن عدد طلاب الجامع الأزهر في تزايد مستمر. ويذكر غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» أن الجامع الأزهر كان يضم

ثلاثمائة أستاذ وأكثر من عشرة آلاف طالب يقصدونه من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وفي مدينة النجف الأشرف بالعراق أسست المكتبة الحيدرية وهي خزانة المشهد الشريف الذي دفن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. واهتم الأمراء والوزراء والأعيان بها، ومن بين من أولوا هذه المكتبة اهتماماً كبيراً عضد الدولة البويهي. وبلغ عدد مقتنيات المكتبة في القرن العاشر الميلادي أكثر من أربعين ألف كتاب. وقد أشارت المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه في كتابها «شمس العرب تستطع على الغرب» إلى المكتبة الحيدرية بقولها: «فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق، كانت تحتوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلد».

والمكتبة الحيدرية بمشهد الإمام علي لا تزال باقية حتى اليوم، وكان إلحاقها بالمشهد سر بقائها والمحافظة عليها إلى يومنا هذا نظراً لما للمشهد من قدسية خاصة عند المسلمين.

ويمكن الإشارة باقتضاب إلى المساجد والجوامع الإسلامية الشهيرة التي تأسست بها مكتبات. فبالإضافة إلى الجامع الأزهر والمكتبة الحيدرية بالنجف الأشرف بالعراق تأسست مكتبات في جامع المنصور في بغداد وجوامع قرطبة وطليطلة في الأندلس، ومكتبة الحرم المكي والمسجد النبوي، وجامع الزيتونة في تونس، ومكتبة مسجد القرويين في المغرب، ومكتبة العزيزية والكمالية في المسجد الجامع بمرو.

ثالثاً: مكتبات المدارس الإسلامية:

برزت المدارس كمؤسسات تعليمية منظمة في القرن الخامس الهجري، حيث كان التعليم في السابق يقام في المساجد والجوامع. وأخذ أبناء الأغنياء يلتحقون بمدارس ملحقة في العادة بأحد المساجد، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء[1]، وكان التعليم بالمجان، بل أن باقي

(١) ول ديورانت. قصة الحضارة. جـ ١٣. ص ١٦٧.

النفقات يؤديها المحسنون الخيّرون. وكان منهاج التعليم في هذه المدارس يشتمل على كيفية أداء الصلاة وقراءة القرآن وحفظه ومعرفة ما فيه من أحكام وقصص ومبادىء الأخلاق والشريعة الإسلامية.

ومطلوب من المعلم أن يستخدم اللين والشدة ما اقتضاه الظرف. ويستدل على ذلك مما قاله هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين: «ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[١].

وكانت طريقة التعلم هي المذاكرة، وأداته هي العصا؛ وكان العقاب المعتاد هو الضرب بعصا من جريد على باطن القدم. وكان التعليم الأولي يهدف إلى تقويم الأخلاق وبعده إلى معرفة العلم. وكان المعلم يجلس مستنداً إلى عمود أو جدار في مسجد. ويلقي دروساً في التفسير والحديث، والفقه والشريعة.

وبعد أن ازدهرت الحركة الثقافية والعلمية والأدبية في البلاد الإسلامية، أصبح وجود مؤسسات تربوية من الضروريات اللازمة لحالة التطور التي حدثت في البلدان الإسلامية. وتجمع المصادر على أن بداية تأسيس المدارس في العصر الإسلامي كان على يد نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة في منتصف القرن الخامس الهجري. ويشير جورجي زيدان إلى أن المدارس ربما بدأت قبل هذا التاريخ حيث يذكر: «ولكننا رأينا الإفرنج يذكرون للمسلمين مدرسة أنشأها المأمون في خراسان وهو والٍ هناك»[٢]. غير أنه يعقب على هذه الرواية بأنه لم يرَ لها ذكراً في كتب العرب ولا يدري من أين نقل الإفرج تلك الرواية، إلا أنه يشير إلى بناء المسلمين عدة مدارس في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك، منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ والمدرسة البيهقية نسبة إلى البيهقي سنة ٤٥٠ هـ والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين، ومدرسة بناها إسماعيل الأسترابادي.

---

(١) ول ديورانت. المصدر السابق. ص ١٦٨.

(٢) جورجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. جـ ٣. ص ٢٢٠.

غير أن الفضل الأكبر في بناء المدارس وتنظيمها والصرف عليها يرجع إلى نظام الملك الذي بلغ من الحكمة وحب العلم درجة عالية، فقد اشتهر بحبه الفقهاء والعلماء والصرف عليهم. ويذكر بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» ذلك بقوله: «وإن يكن الوزير مديناً بشهرته، في المحل الأول، لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء، وما ضمنه لهم من موارد بإنشاء المدارس في جميع المدن الرئيسية، في الامبراطورية»[1].

وإذا كان ما يشير إلى وجود المدارس في فارس ابتداء من أواخر القرن العاشر فإن هذه المدارس حظيت بعطف خاص من الوزير نظام الملك. وبفضله تم نشر المدارس في جميع أنحاء البلاد الإسلامية في بغداد وهراة ونيسابور ومرو والري وأصفهان وغيرها من المدن والأقاليم الإسلامية. وأشهر هذه المدارس المدرسة النظامية في بغداد التي بناها سنة ٤٥٧ هـ، وكان قد بنى قبل ذلك المدرسة النظامية في نيسابور. وبعد ذلك انتشرت ظاهرة بناء المدارس، فالسلطان نور الدين زنكي بنى المدارس في أنحاء متفرقة من الشام، وبنى صلاح الدين المدارس في مصر كما بنيت المدارس في طليطلة وإشبيلية وغرناطة.

وكانت بالمدرسة النظامية في بغداد مكتبة منظمة احتوت على ستة آلاف مجلد، وعيّن لها أمين مكتبة يحافظ عليها ويقدم للدارسين والمدرسين ما يطلبونه من كتب ومصادر متوافرة بها. وقد أتم الغزالي المفكر العربي المعروف رسالته في المدرسة النظامية بنيسابور أولاً ثم في نظامية بغداد.

وتذكر المصادر التاريخية بإسهاب المدرسة المستنصرية وهي المدرسة التي أنشأها الخليفة المستنصر بالله العباسي، وكان من محبي الأدب فأخذ ينفق الأموال الطائلة على الأدباء المشتغلين بالعلوم مما زاد في تطوير الحركة الأدبية والتعليمية في بغداد آنذاك. كما تحدد المصادر التاريخية أن سنة ٦٣١ هـ هي السنة التي أنشأت فيها المدرسة، وأنها زوّدت بالكتب الكثيرة والتي اختلف المؤرخون في تحديد عددها. فابن الفوطي يحدد ما تم نقله من كتب إلى مبنى مكتبة المدرسة بمائة وستين حملاً، كما يزيد آخر هذا العدد بذكره

(١) كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٢٧٤.

عدد الكتب المنقولة إلى المدرسة بمائتين وتسعين حملاً، وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك بقولهم أن عدد الكتب التي نقلت يوم الافتتاح وصل إلى ثمانين ألف مجلد. ويذكر الدكتور الكسندر س. في كتابه «تاريخ الكتاب» هذه المكتبة بقوله: «وقد كانت مكتبات المدارس أيضاً غنية بالكتب، وخاصة تلك التي أقامها الخليفة المستنصر خلال ١٢٣٢ ـ ١٢٣٣ م في بناء رائع. وقد كان طلبة العلم الذين يرغبون بتكوين مكتبات خاصة بهم يحصلون بالمجان على الورق والأقلام لنسخ ما يريدون من الكتب»[١].

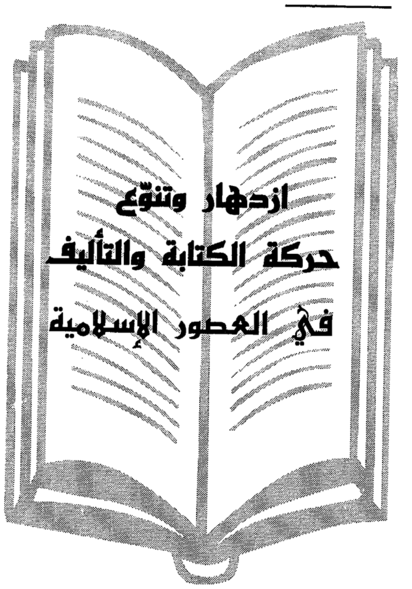
ومن بين من تطرّقوا في كتاباتهم التاريخية للمدرسة المستنصرية ووصفوها وصفاً دقيقاً الحافظ جلال الدين السيوطي الذي ذكر في كتابه «تاريخ الخلفاء» بقوله: «وقال ابن واصل: بنى المستنصر على دجلة من الجانب الشرقي مدرسة ما بني على وجه الأرض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفاً، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها مارستانا، ورتب فيها مطبخاً للفقهاء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقهاء الحصر، والبسط، والزيت، والورق، والحبر، وغير ذلك. وللفقيه بعد ذلك في الشهر ديناراً، ورتب لهم حماماً، وهو أمر لم يسبق إلى مثله»[٢].

ويستمر السيوطي في سرد تاريخ المدرسة ومكتبتها وعدد فقهائها، كما يشير إلى المواد التي كانت تدرس فيها، وإلى وقوف المستنصرية ومدة بنائها وتاريخ افتتاحها وفق ما رواه عن الذهبي حيث يقول: «قال الذهبي: وقد بلغ ارتفاع وقوف المستنصرية في العام نيفاً وسبعين ألف مثقال. وكان ابتداء عمارتها في سنة خمس وعشرين، وتمت في سنة إحدى وثلاثين (ويقصد بذلك أن فترة البناء تمت من عام ٦٢٥ هـ إلى ٦٣١ هـ)، ونقل إليها الكتب وهي مائة وستون حملاً من الكتب النفسية، وعدد فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيهاً من المذاهب الأربعة، وأربعة مدرسين... ثم قال: وفتحت يوم الخميس في رجب، وحضر القضاة والمدرسون والأعيان وسائر الدولة، وكان يوماً مشهوداً»[٣].

---

(١) الكسندر س. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص ٢٤١.
(٢) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص ٤١٤.
(٣) السيوطي. نفس المصدر. ص ٤١٥.

الفصل الخامس



ازدهار وتنوّع حركة الكتابة والتأليف في العصور الإسلامية

ازدهار وتنوع حركة الكتاب والتأليف في العصور الإسلامية

ازدهرت حركة الكتابة والتأليف وتنوعت عبر العصور الإسلامية المختلفة، وكانت بدايتها في القرن الثاني الهجري. وشهد القرن الثالث الهجري وكذلك القرنين الرابع والخامس فترة نضوج حقيقية لحركة الكتاب والتأليف، واستمر زخم الحركة الفكرية ونمائها حتى نهاية القرن السابع الهجري. وبرز في هذه الفترة العديد من العلماء والمفكرين والفلاسفة والمؤرخين، امتهنوا الكتابة لتدوين ما توصلوا إليه من علوم في مجالات مختلفة. كما برز في نفس الفترة بعض الخلفاء والوزراء وبعض العامة من الأغنياء والفقراء كمؤلفين أو جامعين للكتب والتراث العربي وتاريخه القيم. وتضمنت مؤلفاتهم العلوم التي توصلت إليها البشرية في تلك الفترة، فشملت العديد من المواضيع ومن بينها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والعلوم والرياضيات والطب وأمور الأدب واللغة والفقه. وأصبحت تعد تلك المؤلفات بعشرات الآلاف، مما زاد في ثراء مقتنيات المكتبات في العصور الإسلامية وجعلها مراكزاً حقيقية لمصادر العلم والمعرفة.

وتذكر المصادر التاريخية كالفهرست لابن النديم ونفح الطيب للمقري ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرهم من أن هناك من المؤلفين من تجاوزت مؤلفاتهم المئات ومن بينهم الكندي الذي بلغت مؤلفاته ٢٣١ كتاباً، وأبي عبيدة وبلغت مؤلفاته ٢٠٠ مؤلفاً، وابن حزم ٤٠٠ مؤلف. ويذكر المقري في كتابه «نفح الطيب» أن مؤلفات عبد الملك بن حبيب أحد علماء الأندلس بلغت

ألف كتاب ويبدو أن بعض الكتب لا يزيد عدد صفحاتها على بضع ورقات.

وحيث أننا نقف أمام تراث ضخم ومتنوع فإن الحاجة تستدعي ذكر بعض أهم حقول المعرفة والمؤلفين الذين تناولوها عبر الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني والثامن للهجرة النبوية الشريفة وأدى ذلك إلى ازدهار المكتبات في العالم الإسلامي بمختلف أنواعها.

أولاً: السيرة النبوية:

اهتم الكثير من العلماء والفقهاء بالسيرة النبوية الشريفة، إلا أن هناك من لهم قصب السبق في تدوين حياة الرسول وأعماله وغزواته. ويعتبر ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م أول من تناول سيرة الرسول بالكتابة. وقد سافر إلى عدة أمصار عربية وإسلامية لجمع مادته، حيث كان شديد الحرص على تتبع أخبار النبي وأحاديثه من أفواه الرواة الثقات. ومن بين البلدان التي زارها مصر والحجاز ومكة والري وغيرها. وبعد أن استقر في بغداد ألّف السيرة زمن أبي جعفر المنصور. وكان حدثاً عظيماً في تاريخ التأليف الإسلامي، مما شجع النساخ على تناولها حتى أصبح لها خمس عشرة رواية متباينة فيما بينها

وتصدى لسيرة ابن إسحاق العالم اللغوي عبد الملك بن هشام البصري المتوفى سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٤ م، الذي عمل على تلخيصها وتهذيبها بعد مرور خمسين عاماً على تأليف ابن إسحاق للسيرة. وذكر ابن خلكان الجهود التي بذلها ابن هشام بقوله: «ابن هشام هذا المتوفى سنة ٢١٨ هـ هو الذي جمع سيرة رسول الله ﷺ من المغازي والسير لابن إسحاق وهذّبها ولخصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس والمعروفة بسيرة ابن هشام». وهذا يعني أن ابن هشام أعاد كتابة السيرة بأسلوب واضح معتمد اعتماداً كلياً على ابن إسحاق.

وانبرى مجموعة من الباحثين والشارحين لدراسة وشرح السيرة ومن بينهم السهيلي والخشني والواسطي. كما أن الدميري الديريني وابن الشهيد نظما السيرة شعراً.

أما بالنسبة لتدوين الحديث فقد نال اهتمام الكتاب ورجال العلم في القرن الثالث الهجري، ونشأ بذلك مصطلح «علم الحديث»، وأخذت الكتب الخاصة بعلوم الحديث تبرز، منها الموطأ للإمام مالك (المتوفى في المدينة سنة ١٧٩/ ٧٩٥ م)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. إلا أنه بمرور الأيام زاد الاهتمام بإصدار الكتب التي تحوي الأحاديث النبوية وأدى ذلك إلى تصنيفها وفق طبقات، ومن بين أهمها الكتب المسماة الصحاح وتشمل الكتب الستة التي استمدت منها أكثر العلوم والأحكام الإسلامية وهي: صحيح البخاري وصحيح مسلم ويشار إليهما بالصحيحين، أما الكتب الأربعة فيشار إليهما بالسنن وهي: سنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجة.

والملاحظ أن هؤلاء الكتاب الكبار للأحاديث النبوية الشريفة، ألفوا كتبهم في القرن الثالث الهجري حيث توفي البخاري في نواحي سمرقند سنة ٢٥٦ هـ، وتوفي مسلم في نيسابور سنة ٢٦١ هـ وابن ماجة وأبو داوود سنة ٢٧٥ هـ والترمذي سنة ٢٩٥ هـ، والنسائي سنة ٣٠٣ هـ.

ثانياً: اللغة والأدب:

برع العرب في مجال اللغة والأدب أكثر من أية أمة سبقتهم. فقد كان بينهم النحويون واللغويون والشعراء الخطباء والنقاد، وألّفوا في ذلك العديد من الكتب التي أغنت المكتبات الإسلامية وبصورة خاصة المكتبات الرئيسية التي تم ذكرها في الفصل الثالث. والمعروف أن الاهتمام بالنحو جاء في فترة مبكرة حفاظاً على قوام اللغة العربية، فقد جاء ذلك بمبادرة من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في إشارته إلى أبي الأسود المتوفى سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م بأن يتولى أمر ذلك. ومن بين الذين أخذوا النحو عن أبي الأسود الدؤلي، ميمون الأقرن، وعبد الله الحضرمي، وعيسى بن عمر، والخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م) إمام علم العروض واللغة، وسيبويه (المتوفى سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) إمام علم النحو، وألّفوا العديد من الكتب في النحو، وكان أبرز الكتب التي صدرت في النحو كتاب سيبوية في النحو الذي صدر في القرن الثاني الهجري.

وتميز القرن الثاني الهجري بوجود جهابذة اللغة والأدب العربي الأربعة وهم: أبو زيد وهو ثقة في اللغة، أخذ عنه سيبويه، وأبو عبيدة (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ/ ٨٢٤ م) الذي كان أعلم الجميع بأيام العرب وأخبارهم، والأصمعي (المتوفى سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م) رجل اللغة المعروف والناقد الماهر للشعر الذي حفظ منه الكثير، والخليل بن أحمد الذي دوّن لأول مرة اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين. واشتهر من علماء النحو أيضاً الكسائي (المتوفي سنة ١٨٢ هـ) والفراء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) وعلي الأحمر اللحياني وكلهم من علماء الكوفة في القرن الثاني الهجري.

أما أهم الكتب التي صدرت في مجال الأدب في تلك الفترة فهي كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب النوادر للقالي (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م)، والبيان والتبيين للجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٧٨ م)، وكتاب الكامل للمبرد (المتوفى سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م)، وكليلة ودمنة لابن المقفع (المتوفى سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٤ م) وهو كتاب مترجم عن الفارسية. وصدر في القرن الرابع الهجري المقامات لبديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م)، وأحمد بن فارس الرازي، والحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م). وبهذه الكتب وغيرها تم إثراء المكتبات الإسلامية بكتب أصبحت من المصادر الهامة في اللغة والأدب العربي.

هكذا أنجبت الحضارة العربية الإسلامية جهابذة الأدب وعظماء اللغة، تميزوا بسعة الأفق وغزارة الإنتاج، وخصب المادة في ميادين وحقول متنوعة. فقد كانت الفلسفة والطب والعلوم معارف متلازمة بعضها ببعض، وكذلك الحال بالنسبة إلى علم الكلام والشريعة. وكان من المألوف وجود الفقهاء الذين كانوا أدباء وشعراء في آن واحد، مما يعني أن الحضارة العربية الإسلامية أنجبت مجموعة من حملة التراث العربي الإسلامي بمثابة موسوعات أو دوائر معارف متنقلة.

فالجاحظ شيخ الفصاحة والبيان والأدب، كان يكتب بلغة رصينة بليغة، وكان يتمتع بخفة الظل في كتاباته. كتب في العقائد والعلوم الإسلامية والأدب والتاريخ الطبيعي والطب والأجناس والحيوان وأخلاق البشر. ويعد

ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦ هـ) موسوعة أخرى، فكتابه «عيون الأخبار» يعد من روائع كتب الأدب بمعناها الواسع، وهو معنى يقابل تقريباً ما نسميه اليوم بالآداب أو الإنسانيات. أما كتابه «أدب الكاتب» فهو في الحقيقة خزانة علم الأدب. وألّف الدينوري في النحو واللغة والتاريخ والهندسة والحساب. ومن بين من اهتموا بأمور الأدب أبو العباس المبرد الذي يعتبر كتابه «الكامل» موسوعة لعلوم العرب إلى أيامه، فقد تناول الأدب واللغة والتاريخ والدين والطب.

لم يتوقف نبوغ العرب في الأدب على قرون محددة، فعلى الرغم من منهجية كتابنا الذي حددنا فيه قروناً بعينها وهي القرون السبعة الأولى الهجرية، فإن القرن الثامن الهجري امتاز بظاهرة ثقافية خاصة وهي ظاهرة انتشار الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى. فقد ظهرت طبقة من العلماء المبرزين والذين تميزوا بسعة أفقهم وتنوّع معارفهم وحفظهم للكثير من العلوم والآداب، وقاموا بجمع أشتات العلوم والفنون المعروفة في ذلك الوقت في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل، فبرزت موسوعات هامة ما زالت تتبوأ مقامها العالي في تراث الأدب العربي. ومن بين أقطاب هذا التوجه أحمد بن عبد الوهاب النويري (المتوفى سنة ٧٣٣ هـ) وهو صاحب كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وأحمد بن فضل الله العمري (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) وكتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، وأبو العباس القلقشندي صاحب كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء».

ثالثاً: الفلسفة:

اهتم العرب بأمور الفلسفة في القرن الثاني الهجري وتأثروا في بداية الأمر بكتب أفلاطون وأرسطو أي بالفلسفة الإغريقية. ويعتبر الفيلسوف أحد عباقرة زمانه لنضج عقله وسرعة بديهته وذكائه الوقّاد وقدرته على الحفظ واستيعاب ما يقرأ. ومن أجل ذلك نرى أن قدماء الفلاسفة الإغريق والعرب قدّموا بحوثهم ونظرياتهم المبتكرة في العديد من النواحي العلمية والأدبية والفنية. فقد شملت بحوثهم منشأ الكون، وعلوم الفلك، وعلم المنطق،

وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق، والتعمق في دراسة الطب، وعلم الحيوان والنبات، والعلوم السياسية وغيرها، وأصبح الطبيب فيلسوفاً وفلكياً.

ويعد يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي (المتوفى سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م) أول فلاسفة العرب وأشهرهم. بدأ نبوغه في القرن الثاني الهجري في عهد المأمون، واستفاد من مكتبة بيت الحكمة في بغداد، وكوّن مكتبته الخاصة التي سبق التطرق إليها في الفصل السابق. وكانت بغداد في أيام المأمون تعيش عصراً ذهبياً بالنسبة لمجال الفلسفة. فقد تأثر المأمون بالفلسفة وأحبها وشجع الفلاسفة على إبداء آرائهم ونظرياتهم وبحوثهم، كما أمر بترجمة بعض كتب الفلسفة إلى العربية.

أغنى الكندي المكتبة العربية بمؤلفاته التي بلغت ٢٣١ كتاباً وفق ما ذكره ابن النديم في الفهرست. وتطرّقت مؤلفات الكندي إلى الفلسفة وعلم النفس والطب والرياضيات والموسيقى والهندسة والنجوم والفلك والجدل والمنطق وعلوم الطبيعة والحساب. وقد أثرت مؤلفاته في حركة الفكر العربي الإسلامي الفلسفي ردحاً من الزمن.

وبرز الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥١ م) كأحد أهم الفلاسفة المسلمين حتى قيل إنه تفوّق على الكندي وخاصة في المنطق. وطاف بمدن كثيرة في وسط آسيا والعراق والشام ومصر، وألّف كتباً في العلوم الرياضية والطب والموسيقى والفلسفة. ومن بين كتبه التي نالت اهتمام العالم «آراء أهل المدينة الفاضلة» و «نصوص الحكم» و «إحصاء العلوم». وقد ضاعت مؤلفات الفارابي ولم يبق منها سوى أربعين كتاباً.

أما الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) فهو الفيلسوف الذي اهتم بأمور الفكر والسياسة. ولد في البصرة سنة ٣٦٤ هـ وقضى معظم حياته في بغداد عاصمة العلم والمعرفة آنذاك. وألف الماوردي كتباً كثيرة غير أن أهمها ما دار في السياسة ونظام الحكم وشرعيته. ومن بين كتبه «الأحكام السلطانية»، و «قوانين الوزارة وسياسة الملك». وهدف الماوردي من هذين الكتابين تبصير الحكام بالطريقة المثلى لحكم البلاد بعيدين عن روح التسلط ومتسلحين بروح التسامح.

ومن بين فلاسفة الأندلس الذين ألّفوا العديد من الكتب في أمور الفلسفة أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة والذي اشتهر بعلوم الأوائل والنجوم، وتوفي في أواخر القرن الثالث للهجرة. وهناك العديد من الفلاسفة الذين برزوا في الأندلس واهتموا بالرياضيات وعلم النجوم مثل أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ)، وابن السمح المهندس الغرناطي، وابن الصفار، والزهراوي. غير أن ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م) يمثل أبرز فلاسفة الأندلس وأكثرهم غزارة في الإنتاج. فقد ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» خمسين كتاباً لابن رشد، أما رينان فيذكر أنها ثمانية وسبعون كتاباً. كما اشتهر من فلاسفة الأندلس ابن طفيل (المتوفى سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م) الذي اشتهر بقضيته الفريدة في الأدب الفلسفي العربي والتي جاءت تحت عنوان «حي بن يقظان».

رابعاً: الطب والصيدلة:

امتهن العرب المسلمون الطب ونجحوا فيه وألّفوا العديد من الكتب التي تناولت موضوعات الطب من مختلف جوانبه. وظهر الاهتمام بالطب بشكل واضح في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري، وهذه الفترة بالذات من الفترات الغنية بالنتاج الفكري في العالم العربي والإسلامي. واستفاد المسلمون العرب من الكتب الطبية التي ترجمت إلى العربية ككتب أبقراط وجالينوس وأطّلعوا على طب الهنود والفرس.

وفي خضم ازدهار الحياة الفكرية ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في الري سنة ٢٥١ هـ وتوفي وهو كفيف البصر سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م. بدأ حياته بالاهتمام بالنواحي الأدبية والفلسفية، وبعدها انتقل إلى الاهتمام والاشتغال بالطب، فبرز كأحد الأطباء المرموقين في زمانه وكان ذلك بعد انتقاله إلى بغداد والعمل فيها. وألّف كتباً كثيرة في الطب منها كتابه «المنصوري» الذي وضعه بناء على رغبة الأمير منصور بن إسماعيل صاحب خراسان. أما كتابه الثاني في الطب فهو بعنوان «الملوكي» الذي ألّفه للملك عضد الدولة بن بويه. وبلغ عدد الكتب التي ألّفها في مجال الطب ١١٤

كتاباً من بينها مخطوطات وجدت في المتحف البريطاني، إضافة إلى ثلاثين رسالة في الطب.

أما ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) فهو عبقرية يندر مثيلها، فهو الفيلسوف والطبيب والسياسي والموسيقي. تمكن وهو في الثامنة من عمره أن يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب. وتألّق ابن سنيا في الموسيقى فوضع تآلف الأنغام الموسيقية، كما درس الطب وبرع فيه واكتشف بعض الأمراض وعالجها. ومن أشهر كتبه في الطب «القانون في الطب»، و «الشفاء».

وقد نجح ابن سينا وهو شاب في السابعة عشرة من عمره في علاج الأمير نوح بن منصور، وكان أثناء تردده على نوح لاحظ وجود مكتبة فيها العديد من المجلدات والكتب، فطلب من الأمير أن يسمح له بالاطلاع عليها وحصل على موافقته، وقام بشرح المكتبة ومقتنياتها كما تم ذكر ذلك في الفصل الرابع الخاص بمكتبة نوح بن منصور. كما ألّف كتباً في الهندسة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والموسيقى، وبهذا أغنى المكتبة العربية حينذاك بأنواع مختلفة من الكتب.

كما لعب ابن النفيس (المتوفى في القاهرة سنة ١٢٨٨ م) دوراً مميزاً في مجال الطب باكتشافه الدورة الدموية، وبإشرافه على بناء بيمارستان (مستشفى) جديد بالقاهرة، حيث كلّفه السلطان قلاوون بذلك. وكان من نتيجة ذلك أن أنشيء البيمارستان بأقسام متكاملة منها القاعات، والصيدلة، والمكتبة والإيوان، والغرف الخاصة بالأطباء. وألّف ابن النفيس أربعة عشر كتاباً في الطب، كما ألّف كتباً في النحو، والمنطق، والفقه، والسيرة، والحديث، والفلسفة.

وبجانب الطب برع العرب في تحضير الأدوية بعد أن درسوا الكتب الأجنبية التي تمت ترجمتها إلى العربية وتناولت أمور الطب والعقاقير والنباتات المصنوعة منها. ومن بين أهم الكتب التي اطّلع عليها العرب مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس. واستطاع اصطفان بن باسل أن يترجم كتاب ديسقوريدس من اليونانية إلى العربية. وحيث أنه كتاب متخصص في الأدوية

والعقاقير، فقد بذل جهداً كبيراً في الترجمة ولقى بعض الصعوبات في ترجمة بعض العقاقير إلى العربية، مما اضطره تركها بلفظها اليوناني. وفى آخر القرن الرابع الهجري ألّف ابن جلجل كتاباً ذكر فيه أسماء العقاقير والأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس وجعله مكملاً للكتاب ديسقوريدس المترجم.

ومن بين العرب الذين برعوا في تحضير العقاقير والأدوية من الأعشاب عبد الله بن أحمد بن البيطار عالم النبات المشهور. ولد بمدينة ملقا بالأندلس سنة ٥٨٩ هـ وتوفي بمدينة دمشق سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م عن عمر ناهز الستين عاماً بعد أن خلّف وراءه بصمات لا تنسى في علم النبات وعلم الطب والصيدلة. ومن مؤلّفاته «المغنى في الطب»، و «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة»، و «شرح ديسقوريدس»، وكتابه المشهور «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» الذي وضع فيه خلاصة ما عرفه الأقدمون والمعاصرون له وفي طليعتهم، الزهراوي (المتوفى سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧ م)، والغافقي، وديسقوريدس، وجالينوس، والإدريسي (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤)، وأبقراط، بالإضافة إلى ما توصل إليه ابن البيطار نفسه. وهكذا أصبح كتابه يمثّل ثورة علمية في مجال علم النبات والأدوية والعقاقير الطبية. ومما يجعل كتابه هذا من المراجع التي يعتمد عليها الجهود المضنية التي بذلها في تأليفه. فقد وضعه بعد دراسات طويلة وأبحاث مكثّفة وزيارات متعددة قام بها إلى عدة بلدان عربية وأجنبية. واعتمد في تأليف كتابه على مئة وخمسين كاتباً وعالماً، بينهم عشرون مؤلفاً يونانياً.

وهناك العديد ممن برعوا في تأليف كتب الطب والصيدلة ومن بينهم، البيروني (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) عالم الجغرافيا الفلكية. فقد ألّف كتباً في الصيدلة أشهرها كتابه «الصيدلة في الطب»، وألّف أبو زكريا يحيى بن ماسويه (المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م) ١٩ كتاباً في الطب، وألّف حنين بن إسحاق العبادي (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م) في نفس المجال ثلاثين كتاباً.

خامساً: الفلك وعلم النجوم:

كانت للعرب خبرتهم السابقة في علم النجوم التي تناقلوها عن الآخرين. غير أنه في عصر النهضة العباسية تم الاهتمام بعلم الفلك والنجوم بشكل آخر، فأصبح ما يطرح على الساحة يكون من منظور علمي وتجريبي، لا محض خيال أو نقل دون معرفة أو تجربة. وبدأ الاهتمام بعلم النجوم منذ بداية العصر العباسي، فقد اهتم المنصور (المتوفى سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م) بعلم النجوم وأدى اهتمامه هذا إلى قيام محمد الفزاري بنقل السند هند إلى العربية ليكون أساس علم النجوم عند العرب والمسلمين. ودخل مجال الفلك في أيام المأمون بنو شاكر الثلاثة أبناء موسى بن شاكر (توفي محمد الابن الأكبر سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) وألّفوا كتباً في هذا المجال.

وقد أفسح المأمون لهم مع سائر الفلكيين داراً بالقرب من الشماسية لرصد النجوم رصداً علمياً دقيقاً. إلا أنهم أقاموا فيما بعد مرصداً خاصاً بهم بالقرب من جسر الفرات عند باب التاج في بغداد، ومنه استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر. وفي هذا قال الفرنسي «سيديو» «لقد توصّل فلكيو بغداد في نهاية القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه إنسان في رصد السماء وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجرّدة، دون اللجوء إلى عدسات مكبّرة أو منظار».

وأشادت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه بإسهامات أبناء شاكر بعلم الفلك في كتابها «شمس العرب تستطع على الغرب» بقولها: «صنع الأخوان محمد وأحمد آلة هي ذات شكل دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها، وتديرها قوة مائية. وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة. وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي في الآلة».

ساهم في علم النجوم والفلك مجموعة من العلماء الذين قدموا أبحاثهم وكتبهم في هذا المجال، ومن بينهم أبو معشر البلخي (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ)، وحنين بن إسحاق العبادي (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م)، ونصير الدين الطوسي (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤ م) وغيرهم. وكرّس

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) جلّ وقته لدراسة الفلك. فألّف أثناء وجوده في جرجان كتاباً بعنوان «الآثار الباقية» وأهداه إلى الأمير شمس المعالي ومعه ثلاث رسائل عن الحساب العشري والرصد الفلكي والإسطرلاب. ومن الكتب التي ألّفها في هذا المضمار «التفهيم لأوائل علم التنجيم»، و «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»، و «الكتاب والإسطرلاب»، و «القانون في علوم الهيئة والنجوم» وفي هذا الكتاب الأخير برهن البيروني على كروية الأرض وكروية النجوم والكواكب الثابتة والسيارة.

امتاز البيروني بتعدد المواهب، فقد كان فيلسوفاً، ومؤرخاً، ورحالة، وجغرافياً، وفلكياً، ولغوياً، ورياضياً، وشاعراً، وعالماً في الطبيعيات، مما أدّى إلى احتفاء عالمنا المعاصر بذكراه لما قدمه من علم وما ألّفه من كتب خدمت الإنسانية. فبقرار من منظمة اليونسكو، ومن المؤتمر الدولي للمستشرقين احتفل في عام ١٩٧٣ م بالذكرى الألف لمولد البيروني الذي احتل عن جدارة واستحقاق مراتب الشرف في تاريخ العلم.

وبرع في مجال الفلك والنجوم البتاني أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الرقي (المتوفى سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م) الذي توصّل إلى الكواكب الثابتة نتيجة رصده إياها. وألّف في علم الفلك والنجوم «كتاب الزيج»، و «كتاب معرفة مطالع البروج من بين أرباع الفلك».

وبهذا قدّم العرب خدمة جليلة للإنسانية في مجال الفلك والنجوم خاصة وأنهم بنوا المراصد لرصد وتعيين أماكن النجوم وحركاتها، ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى المأمون الذي شجّع العلماء وأمدهم بكل ما يحتاجونه من مال ومواد وكتب.

سادساً: الرياضيات:

يعود الفضل إلى تطور الرياضيات في عصرنا الحديث إلى علمائنا الأوائل وعلى رأسهم الخوارزمي (المتوفى سنة ٨٥٠ م). فقد بذل علماء المسلمين جهوداً جبارة من أجل التوصل إلى كتابة الأرقام للاهتداء بها في

كثير من الأمور المتعلقة بشؤون الحياة. وألّف العرب الكثير من الكتب في الحساب والجبر والهندسة ذكرت في الكثير من المصادر التاريخية العربية والأجنبية، فأثرت بذلك الحركة الفكرية المتنامية في البلدان الإسلامية. ومن أكبر مآثر العرب في الرياضيات نقلهم الحساب والأرقام الهندية إلى أقطار العالم. وأوّل من تناول الأرقام الهندية الخوارزمي، وعن العرب أخذ الغرب هذه الأرقام الهندية وأطلقوا عليها الأرقام العربية.

اشتهر الخوارزمي في الرياضيات وعلم الفلك وكان له الفضل الأكبر في تقدمها وارتقائها. فهو أول من استعمل علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب وفي قالب منطقي علمي. كما أنه أول من استعمل كلمة الجبر للعلم المعروف بهذا الاسم، ومنه أخذ الغرب هذه التسمية واستخدموها في لغاتهم. وللخوارزمي كتاب في الحساب، وقد بقي هذا العلم معروفاً في الغرب باسم الزيج الغورتمي نسبة إلى الخوارزمي عدة قرون. وألّف الخوارزمي كتباً في الزيج، وفي تقويم البلدان، وفي التاريخ، والإسطرلاب، وكتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك. وبهذا تكون المدنية الحديثة مدانة إلى هذا العالم العربي الفذ الذي تألّق نجمه في سماء الرياضيات، واهتدى بعلمه علماء الشرق والغرب.

كما لعب ابن الهيثم دوراً ريادياً في علم الرياضيات وألّف الكثير من الكتب في هذا المجال. ويكفي أن نقتبس ما قاله عن كتابه «الجامع في أصول الحساب» حيث يذكر: «واستخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع أوقليدس في أصول الهندسة والعدد، وجعلت السوك في استخراج المسائل الحسابية بجبهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي. وعدلتُ فيه عن أوضاع الجبريين والمنجمين». ويصف ابن الهيثم كتابه الآخر «في الأصول الهندسية والعددية» بقوله: «كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أوقليدس وأبولونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسيّة والمنطقية، حتى انتظم ذلك».

وألّف الحسن بن شاكر كتاباً في قطع المستديرات، وأوجد الشكل البيضوي في الهندسة الخاصة بالحدائق. وعالج الطبيب والفيلسوف المشهور الشيخ الرئيس ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) مسائل الأحجام

اللامتناهية حجماً. كما أن اهتمام الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥١ م) بالموسيقى ومبادىء النغم والإيقاع قربه قاب قوسين أو أدنى من علم اللوغاريتم الذي يكمن بصورة مصغرة في كتابه «عناصر الموسيقى».

ومن بين من أثروا المكتبة العربية بعطائهم في مجال الرياضيات العالم العربي أبو الوفاء البوزجاني (المتوفى سنة ٩٩٨ م) الذي أعطى نتاجاً مميزاً في علم الفلك والمثلثات وأصول الرسم. ويعتبر البوزجاني من الذين مهدوا لإيجاد الهندسة التحليلية بوضعه حلولاً هندسية لبعض المعادلات الجبرية العالية. واشتهر عن البوزجاني بأنه وضع مؤلفاته ورسائله في الرياضيات والفلك في متناول العامة والخاصة دون استثناء، وهذه ميزة قلما تتوافر في بقية العلماء الآخرين.

سابعاً: الكيمياء:

نبغ العرب في القرن الثاني الهجري في صناعة الكيمياء التي كانوا يطلقون عليها «الصنعة» مؤسسين بتجاربهم ومستحضراتهم الكيمياء الحديثة، مكتشفين بعض المركبات الكيميائية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة أيضاً. وتشير المصادر الغربية إلى أن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة المسمى حديثاً بحامض النتريك، وزيت الزاج المسمى حامض الكبريتيك، والراسب الأحمر أي أكسيد الزئبق، والزرنيخ، والكحول وغير ذلك من مركبات كيميائية مختلفة.

ويعتبر خالد بن يزيد أول من اشتغل في نقل الكيمياء إلى العربية، فهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء. ويذكر ابن النديم في فهرسته أن سبب اشتغال خالد بن يزيد في صناعة الكيمياء هو فشله في نيل الخلافة بقوله: «يقال: إنه قيل له: لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته، إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة». كما يذكر ابن النديم أنه رأى من كتبه خمسة هي «كتاب الحرارات» و «كتاب الصحيفة الصغير»، و «كتاب الصحيفة الكبير»، و «كتاب وصيته إلى

ابنه في الصنعة». كما يذكر ابن النديم أيضاً أسماء ٤١ كتاباً في الصنعة ثبت له أن خالد رآها وقرأها.

ومن بين المشتغلين الأوائل بعلم الكيمياء الإمام جعفر الصادق (المتوفى سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م) الذي قال عنه السيد محسن الأمين في المجالس السنية: «إن التراث العلمي الذي خلفه الإمام الصادق للأجيال المتعاقبة، تراث عميق عظيم، غني بالابتكار والجدة، وبعد الغور، ووسع المعرفة من كل جهاتها، وجلا عن عدد من العلوم خفاياها وغوامضها، فأثرى به الفكر الإنساني ثراءً كبيراً، وانفتحت بها أمام العقل آفاق لم يدركها من قبل، ولم يسبق له التعمق فيها، والاطلاع على ما تضمه من كنوز العلم والعرفان».

برع الإمام جعفر الصادق في الجانب العلمي للكيمياء، وكان جابر بن حيان من تلامذته. ويقول ابن نباته المعري: «إن جابر بن حيان، إذا قال في كتبه: «قال سيدي، وسمعت من سيدي» فإنه يعني جعفراً الصادق». كما أن الدكتور محمد يحيى الهاشمي ألّف كتاباً بعنوان «الإمام الصادق ملهم الكيمياء» مما يدل دلالة واضحة من أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام هو أحد كبار علماء الكيمياء والمؤسسين للاشتغال بهذه الصناعة الهامة التي بني عليها تقدّم البشرية.

أما جابر بن حيان (المتوفى سنة ٨١٣ م) فإنه أخذ عن الإمام الصادق الكثير من الأمور الخاصة بالكيمياء ومركباتها، وكانت له مراسلاته مع الإمام. وقد نبغ جابر بن حيان في الكيمياء وألّف فيها الكثير من الرسائل والكتب بقي منها ثمانون كتاباً ورسالة محفوظة اليوم في مكتبات الشرق والغرب. وقد توصّل جابر بن حيان في بحوثه وتجاربه إلى علم الموازين الذي هو عبارة عن معادلة ما في الأجساد (المعادن) من طبائع، فجعل لكل من الطبائع ميزاناً، ولكل جسد من الأجساد موازين خاصة بطبائعه.

كما اهتم جابر بمختبره فاستحضر كربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، والحامض النتريك وغيرهم من المركبات الكيميائية. وألّف «كتاب السموم ودفع مضارها» وهو كتاب يربط بين الطب والكيمياء. أما مؤلفاته فهي كثيرة ومتعددة الاتجاهات منها: الكيمياء، وعلم الموازين،

والطبيعة، والفلك، والفلسفة، والتاريخ الطبيعي، والتصوف، والموسيقى، والرياضيات. ويذكر ابن النديم في الفهرست أسماء الكتب التي ألّفها جابر بن حيان وعددها ١٦١ كتاباً. غير أنه يذكر في الفهرست ما قاله جابر بن حيان عن عدد مؤلفاته ونوعياتها: «قال أبو موسى: ألّفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة، وألّفت ثلاثمائة كتاب في الحيل، على مثال كتاب تقاطر، وألّفت ثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب، ثم ألّفت في الطب كتاباً عظيماً، وألّفت كتباً صغاراً وكباراً. وألّفت في الطب نحو خمسمائة كتاب، مثل كتاب المجسة والتشريح، ثم ألّفت كتب المنطق على رأي أرسطاليس، ثم ألّفت كتباً في الزهد، وألّفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة، وألّفت كبتاً في التيرنجات، وألّفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة. ثم ألّفت ذلك خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة، ثم ألّفت كتاباً في الصنعة يعرف بكتب الملك، وكتاباً يعرف بالرياض».

ثامناً: الببليوغرافيا والتراجم:

تتداخل كتب الفهارس أو ما نطلق عليها اليوم الببليوغرافيا مع بعض كتب التراجم، نظراً لتشابه المعلومات التي وردت في بعض تلك الكتب، ويستطيع القارىء التمييز بينهما بالاطلاع عليهما. ونظراً للتداخل فقد جعلتهما متقاربين من حيث الترتيب في الكتاب ليفرّق القارىء بينهما.

أ ـ الببليوغرافيا (الفهارس):

لم تكن مبادىء عمل الببليوغرافيا ومواصفاتها موجودة في السابق لأنها من إرهاصات النهضة العالمية الحديثة. غير أن العرب توصّلوا بجهودهم الذاتية إلى ما يشبه العمل الببليوغرافي في القرن الرابع الهجري عندما صنّف ابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) كتابه الفهرست في سنة ٣٧٧ هـ، والذي يعتبر مصدراً مهماً لدراسة الحركة الفكرية الإسلامية ونوعية التأليف منذ بداية الدعوة الإسلامية إلى أواخر القرن الرابع الهجري.

سبقت ابن النديم بعض المحاولات الجادة في مجال عمل الفهارس أو ما نسميه اليوم بالببليوغرافيا، وإن كانت بسيطة وفي نطاق ضيق. فمن بين

الذين سبقوا ابن النديم الفيلسوف المشهور الفارابي الذي عمل على حصر العلوم وتصنيفها وذكر أشهر الكتب التي أُلّفت فيها، وضم ذلك في كتابه المعروف «إحصاء العلوم». أما الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) فهو أحد معاصري ابن النديم، ألّف كتابه المعروف «مفاتيح العلوم» صنّف فيه العلوم المعروفة حينذاك وذكر المواضيع التي تشتمل عليها.

يتميز ابن النديم عن الآخرين بقدرته على جمع العديد من عناوين الكتب، مع إعطاء نبذة وجيزة عن المؤلف كلما استدعى الأمر. ويكفي ابن النديم فخراً كونه البادىء بإصدار أول عمل ببليوغرافي منظّم ودقيق ومقسّم وفق العلوم والفنون والمؤلفين. فقد اجتهد فأصاب حين قسّم كتابه «الفهرست» إلى عشر مقالات، وفرع المقالة الواحدة إلى فنون، وتتباين الفنون وفق المقالات.

وللتبصير بالمحاولات والجهود التي بذلها ابن النديم في الفهرست لتسهيل الاستفادة منه، ولإعطاء القارىء فكرة واضحة عن تنوّع النتاج الفكري العربي الذي حفظه لنا ابن النديم، نورد المقالات الرئيسية التي اشتمل عليه الفهرست وفق ما جاء في طبعة سنة ١٩٨٥، تحقيق د. ناهد عباس عثمان.

المقالة الأولى: في وصف لغات الأمم وخطوطها وأشكال كتاباتها.

المقالة الثانية: في النحو واللغويين ومصنفاتهم.

المقالة الثالثة: في الأدباء والكتّاب وأصحاب السير، وفي الولاة والملوك والندماء والمغنين... وكتبهم.

المقالة الرابعة: في الشعر والشعراء وطبقاتهم من الجاهليين والإسلاميين والمحدثين.

المقالة الخامسة: في علماء الكلام وشيوخ الفرق الدينية.

المقالة السادسة: في الفقه والفقهاء والمحدثين وأئمة المذاهب.

المقالة السابعة: في الفلاسفة والمهندسين وأهل الحساب والمنجمين والموسيقيين والأطباء.

المقالة الثامنة: في الأسماء والخرافات والسحر والشعوذة.

المقالة التاسعة: في المذهب والاعتقادات.

المقالة العاشرة: في أخبار الكيميائيين والصنعويين.

وبهذا الجهد حفظ لنا ابن النديم في فهرسته كل ما ألّف أو ترجم من الكتب والمخطوطات حتى نهاية القرن الرابع الهجري. كما يعطي الفهرست مؤشراً يوضح مدى غزارة الإنتاج الفكري العربي الإسلامية وتنوعه وازدهاره خلال حقبة معينة من حقبات التاريخ والتي تنحصر في القرون الأربعة الأولى للهجرة النبوية الشريفة.

لم تتوقف إصدار الببليوغرافيات بموت ابن النديم، بل حدثت عدة محاولات بعده وإن كانت في سنوات متباعدة. ففي عام ٦٠٦ هـ ألّف فخر الدين الرازي كتابه «حدائق الأنوار في حدائق الأسرار» ورتب المواد التي ذكرت في الكتاب حسب المواضيع. كما حاول إعطاء نبذة موجزة عن حياة مؤلفي الكتب التي تم ذكرها في ببليوغرافيته. ونحا قطب الدين الشيرازي (المتوفى سنة ٧١٠ هـ) نحو الرازي، فوضع كتابه «درة التاج لغرة ديباج» كما ألّف طاش كبرى زادة (المتوفى سنة ٩٦٨ هـ) كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» الذي يعد مصدراً هاماً للحياة الفكرية للمسلمين بعد الغزو المغولي.

ب ـ التراجم:

التراجم هي أحد فنون الكتابة التي تميّزت بها الثقافة العربية الإسلامية. وقد برع العرب في إبراز تراجم الشخصيات التي كانت لها دورها الفاعل في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية، كأن يكون طبيباً أو مهندساً أو عالماً أو مؤرخاً أو أديباً أو حاكماً وما إلى ذلك من أمور مختلفة. «فطبقات ابن سعد» كتاب غني بتراجم الصحابة ومثله «طبقات الشافعية». وهكذا بدأ العرب يهتمون بتخليد رجالاتهم من خلال إبراز تراجمهم وبعض من قصص حياتهم. فقد وضع السلمي معجماً تاريخياً لرجال التصوف، ووضع السخاوي كتابه بعنوان «الضوء اللامع في رجال القرن التاسع»، كما أصدر الغزي كتابه «الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة».

وساهم ابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م) في مجال

التراجم بإصداره كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» وهو عمل متفرد لم يطرقه من قبله أحد. ويذكر ابن أبي أصيبعة سبب إصداره هذا الكتاب بقوله: «وبعد فإنه لما كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع وأربح البضائع... وأنه لما كان قد ورد كثير من المشتغلين بها والراغبين في مباحث أصولها وتطلبها، منذ أول ظهورها إلى وقتنا هذا... ولم أجد لأحد من أرباب هذه الصناعة كتاباً جامعاً في معرفة طبقات وفي ذكر أحوالهم على الولاء، رأيت أن أذكر في هذا الكتاب نكتاً وأخباراً في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم وذكر شيء من كتبهم».

وهكذا بدأ المؤلفون العرب في إصدار كتب التراجم مستخدمين كلمات مختلفة لعناوين كتبهم، وإن اتجهت الأكثرية إلى استخدام كلمة «معجم»، «كمعجم الأدباء» لياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م). وكانت التراجم تتحدث عن تخصص معين إلى أن جاء ابن خلكان فأحدث تغييرات جذرية في عملية جمع وإبراز التراجم المختلفة خارجاً عما كان متعارفاً عليه من تخصيص كتب التراجم في فئة معينة. وبهذا يكون ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٣ م) أول جامع للتراجم العامة كما جاء في معجمه بعنوان «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان». وحدد منهجيته الجديدة في وصفه كتابه هذا بالقول: «لم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته وأتيت من أحواله بما وقفت عليه، مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب، وأثبت وفاته ومولده أن قدرت عليه، ورفعت نسبه ما ظفرت به».

لقد حافظت كتب التراجم والفهارس (الببليوغرافيا) على تراثنا العربي الإسلامي وأبرزته بصورته الحقيقية رغم المتاعب التي لا نشك في أنها جابهت جامعي عناوين الكتب والشخصيات. إن كتب الفهارس والمعاجم الخاصة بالتراجم تبين بوضوح مدى تنوع النتاج الفكري العربي الإسلامي منذ القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن السابع الهجري، وهي فترة عطاء متواصلة في معظم حواضر البلدان الإسلامية، في بغداد، وقرطبة والقاهرة وغيرها من مدن هامة في تلك الفترة.

تاسعا: التاريخ:

بدأ المسلمون الاهتمام بتدوين التاريخ منذ القرن الأول الهجري، وانحصر في المغازي والسير والطبقات والفتوح. وكانت تلك الأمور الهامة إحدى الأسباب التي طوّرت مهاراتهم ومفاهيمهم ودفعتهم فيما بعد للاتجاه إلى كتابة التواريخ العامة. وكانت بداية كتابة التاريخ العام هي ثمرة الجهود التي بذلها اليعقوبي في كتابه الصادر في جزءين. تناول في الجزء الأول التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والرومان والفرس وغيرهم. وتناول في الجزء الثاني تاريخ الإسلام من ظهوره إلى أيام المعتمد العباسي.

وتجمع المصادر التاريخية القديمة منها والحديثة أن أبا جعفر محمد الطبري (المتوفى في بغداد سنة ٣١٠ هـ/ ٩٢٣ م) أول مؤرخ عالمي في الإسلام. فكتابه «تاريخ الرسل والملوك» تناول فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ م.

وجاء المسعودي (المتوفى في مصر سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٨ م) كأحد المؤرخين العظام بعد الطبري. فقد تجوّل في بلاد الشام، والجزيرة العربية، وزنجبار، وفارس، وأواسط آسيا، والهند، وسرنديب، ووصل إلى بحر الصين. وكانت ثمرة تجواله تأليفه كتابه المشهور «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي درس فيه المسعودي جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحي التاريخية والجغرافية والنباتية والحيوانية. كما درس عادات أهلها، وأديانهم، وعلومهم. ويرى ول ديورانت صاحب كتاب «قصة الحضارة» أن المسعودي هو أعظم من جاء بعد الطبري من المؤرخين. وقد أثرى الحركة الفكرية العربية الإسلامية بالعديد من كتبه التاريخية في معظمها، غير أنه ومن أسف شديد لم يعثر عليها ويعتقد أنها ضاعت. ويذكر ابن شاكر في فوات الوفيات مؤلفات المسعودي بقوله: «وله من التصنيفات: كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور، وكتاب الرسائل، والاستذكار بما مرّ في سالف الأعصار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب التنبيه والإشراف، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين، وكتاب المقالات في أصول الديانات، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وكتاب البيان في

أسماء الأئمة، وكتاب الخوارج».

ويلاحظ أن المسعودي ومن سبقوه دوّنوا الجانب الجغرافي في مؤلفاتهم التاريخية، وبهذا ربطوا التاريخ بالجغرافيا ربطاً محكماً.

عمد المؤرخون الذين جاؤوا بعد اليعقوبي والطبري والمسعودي إلى كتابة التاريخ مستعينين بالكتب التاريخية للمؤرخين الأوائل ومحاولين اختصار بعضها. ويذكر جورجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» أن ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) ضمن في كتابه «الكامل» تاريخ الطبري كله بعد حذف الأسانيد واختصار النصوص المطوّلة، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الأندلس وغيرها.

أما ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) فهو من مؤرخي القرن الثامن الهجري، رتّب تاريخه على الدول بدل السنين وركّز كثيراً على تاريخ المغرب والأندلس. وهناك بعض المؤرخين من اتخذ أسماء المدن عناوين لكتبهم مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ)، و «تاريخ دمشق» لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ). وجاء المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) ليقدم للمجتمع العربي مكتبة متكاملة في التاريخ بدأها بكتابه المشهور باسم الخطط وهو «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» تناول فيه المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة، كما اهتم بخطط الفسطاط والقاهرة. ومن كتبه أيضاً «عقد جواهر الإسقاط في أخبار مدينة الفسطاط»، وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك».

ومن بين المؤرخين الذين انتهجوا نهج المقريزي، المؤرخ المعروف أبو المحاسن ابن تغري بردى، وكان كتابه «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» يؤكد تمسكه بنفس الطريقة والمنهجية التي انتهجها المقريزي. وإنصافاً للحقيقة فإن ابن خرداذ به (المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م) يعتبر من أبرز أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا في كتاباتهم على زياراتهم للبلدان وتدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم. فقد كتب عن الهند، وسيلان، وجزائر الهند الشرقية، وبلاد الصين بعد قيامه برحلات إلى تلك البلدان. وهكذا أصدر المسلمون العديد من الكتب التاريخية التي بلغ عددها وفق ما تم حصره في «كشف الظنون» بما يزيد على ألف وثلاثمائة كتاب.

عاشراً: الجغرافيا:

من الأمور التي لمع العرب فيها منذ القرون الأولى للهجرة النبوية الشريفة الجغرافيا وعلم الفلك والنجوم. وشهد التاريخ بروز العديد من الكتّاب والمؤلفين المسلمين الذين بزغ نجمهم في مجال الجغرافيا. وقد كتب بعض المؤرخين في الجغرافيا لتداخلها مع التاريخ، إلا أن هناك من تخصص في الكتابة في الجغرافيا وقام بعدة رحلات لتثبيت ما دوّنه ولرسم بعض الخرائط أو للتحقق منها.

ولم يجانب جورجي زيدان الحقيقة عند ذكره الأسباب التي أدت إلى اهتمام المسلمين بالكتابة في الجغرافيا. فقد ذكر ثلاثة أسباب أرى أنها تصب في كبد الحقيقة. أولها الحج حيث يقدم المسلمون للحج من بلدان مختلفة مما يستدعي معرفة الطرق والبلدان التي يعبرونها أثناء طريقهم إلى مكة. أما السبب الثاني فهو اهتمام المسلمين بطلب العلم وهذا يعني شد الرحال إلى أمصار مختلفة. والسبب الثالث هو فتح العرب للعديد من البلدان مما يستدعي معرفتها.

ويعتبر كتاب «صور الأقاليم» للشيخ أبو زيد البلخي أول كتاب جغرافيا يصدر وفق المفهوم السائد عند اليونانيين. وسار على نهجه أبو إسحاق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي فألّف كتابه «مسالك الممالك» بعد أن سافر وشاهد بنفسه البلدان التي كتب عنها. وأخذ الكتّاب المسلمون يقومون بجولاتهم ورحلاتهم في البلدان يدوّنون المدن والأقاليم والسهول والأنهار والجبال، ويرسمون الخرائط للبلدان التي يزورونها. وممن قام برحلات إلى البلدان ابن حوقل (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٨١ م) الذي ألّف كتابه «المسالك والمالك» وضع فيه خرائط للأقاليم التي زارها ورسم الجبال والبحار والأنهار والجزر والمدن. كما أن المسعودي (المتوفي سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٤ م) الذي سبق الحديث عنه في القسم الخاص بالمؤلفات التاريخية، يعتبر واحداً من رجال الجغرافيا أيضاً. فقد عمد في كتاباته على التداخل بين التاريخ والجغرافيا، ولهذا يمكن اعتباره المؤرخ الجغرافي.

أما المقدسي أبو عبد الله أحمد بن أبي بكر البناء، المعروف بالمقدسي

نسبة إلى بيت المقدس (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م) فهو من أنبغ رجال الجغرافيا في القرن الرابع والخامس الهجري. فكان يقوم برحلاته وأسفاره من بلد إلى آخر بغية التحقق من صحة المعلومات التي يثبتها في كتبه. وقد أصدر كتابه المعروف «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ويقصد بالأقاليم البلدان الأربعة عشر التي زارها وهي بلدان عربية وأجنبية ورسم خرائط لها.

ويعتبر أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م) أحد أبرز الجغرافيين العرب في القرن السادس الهجري. فهو الذي رسم خارطة على أساس الأطوال والعروض، ووصف البلدان التي تحدّث عنها، كما وصف المدن ومعيشة الناس فيها. وكتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يعد من بين أهم كتب الجغرافيا التي برزت في العصور الإسلامية. ومما ساعد الإدريسي على تحقيق شهرته الواسعة قيامه برحلات إلى بلدان مختلفة لجمع المعلومات ورسم الخرائط. فقد زار الشمال الإفريقي، والأندلس، وجزءاً من فرنسا، وآسيا الصغرى، ومصر، والشام، وصقلية التي زارها بناء على دعوة من ملكها روجار.

وألّف شهاب الدين ابن فضل الله العمري (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» تناول فيه معظم الممالك الإسلامية المعروفة آنذاك. كما أصدر ياقوت الحموي «معجم البلدان» مقدماً عملاً جديداً في مجال الجغرافيا. ورتّب ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) معجمه على حروف الهجاء متجاوزاً العالم الإسلامي إلى مناطق أخرى في العالم. كما حاول تفسير بعض المصطلحات الجغرافية مثل الفرسخ والبريد والإقليم والكورة وغيرها.

أدى ازدهار الكتابة والتأليف في الفترة من القرن الثاني الهجري إلى القرن السابع الهجري إلى تأسيس العديد من المكتبات في البلدان الإسلامية وتزويدها بالكتب التي تصدر في الشام، والعراق، ومصر، والأندلس، والمغرب وخراسان وبقية الأصقاع الإسلامية. وتنوّعت مؤلفات بعض الكتّاب وبصورة خاصة الفلاسفة، فقد كتبوا في الطب والهندسة والعلوم والموسيقى والتاريخ بالإضافة إلى مجال الفلسفة. كما أن المؤلفات التاريخية والجغرافية تداخلت في بعضها البعض، ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح من خلال ما

أوردناه سابقاً. وعلى الرغم من تخصّص بعض الكتّاب في تأليف التراجم، إلا أنه من الملاحظ أن العديد من كتب الأدب تزخر بتراجم الأدباء والحديث عنهم كما هو الحال في «العقد الفريد» لابن عبد ربه و «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني.

من هذا نجد أن كتب التراث العربي تضم تشعبات مختلفة تأخذ جانب الأدب والتاريخ والتراجم. كما أن كتب النجوم والفلك تتداخل مع الجغرافيا وهذا أمر حتمي نظراً للصلة التي تربط الجغرافي بالنجوم والفلك.

ومما لا شك فيه أن حركة الترجمة كانت نشطة وأدّت إلى إثراء المكتبات الإسلامية بكتب في مواضيع مختلفة وذات فوائد كثيرة نظراً لاختيارها من بين العديد من الكتب الأجنبية الأخرى. فقد ترجمت كتب الطب والفلسفة والفلك والنجوم والرياضيات والكيمياء من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية ودفعت الأموال الطائلة في سبيل جلبها وترجمتها. وبهذا حفظ العرب بعض الكتب الأجنبية التي لو بقيت هناك لاندثرت كما اندثرت بقية الكتب الأخرى في موطنها الأصلي.

الفصل السادس



الوراقة ونمو المكتبات الإسلامية

الوراقة ونمو المكتبات الإسلامية

أدّى تواجد المئات من المؤلفين المسلمين الذين تنوعت مؤلفاتهم - كما تم ذكر ذلك في الفصل السابق - واتجاهاتهم ومشاربهم الفكرية والثقافية إلى تواجد طبقة جديدة في المجتمع الإسلامي تعرف «بالوراقين». وقد برزت هذه الفئة بوضوح تام في أوائل العصر العباسي وبصورة خاصة أيام الخليفة العباسي المأمون.

والوراقون هم الذين يقومون بأعمال النسخ والتصحيح وتجليد الكتب وزخرفتها وبيعها. وكانت لهم خبرتهم في مجال النسخ ومعرفة نوعيات الورق، وأصبحوا بمثابة ناشرين محترفين. واهتم المؤلفون بالوراقين وأخذوا في اختيار أفضلهم وأشهرهم لنسخ كتبهم وبيعها. وكانت للوراقين أماكنهم الخاصة والتي هي عبارة عن حوانيت صغيرة، ملئت بالكتب وأدوات الكتابة كالأقلام والحبر والورق. وأخذ الأدباء والكتّاب يترددون على تلك الحوانيت ويقضون فيها أوقاتهم، بل إن مناقشات ومناظرات تثار بينهم هناك. وأصبحت أماكن الوراقين بمثابة منتديات ثقافية يؤمها كبار الأدباء كالجاحظ والأصمعي والكسائي وغيرهم.

وكانت للوراقين وبصورة خاصة أولئك الذين يقومون بأعمال النسخ تقاليد وآداب معينة التزم بها الكتّاب عند نقل الكتب أو نسخها. ومما جاء في آداب النسخ أنه إذا نسخ شيء من الكتب الفقهية المتعلقة بالشريعة الإسلامية فينبغي أن يكون الكاتب على طهارة وأن يستقبل القبلة وهو طاهر البدن والملبس، ويبدأ الكتّاب بكتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم» حتى وإن

كان المؤلّف قد نسيها. ثم يكتب: قال الشيخ أو قال المصنّف، ثم يشرع في نسخ ما ألّفه المؤلف. وعندما ينتهي من نسخ الكتاب أو الجزء عليه أن يختم الكتاب بالحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ. كما يذكر العبارة التالية: آخر الجزء الأول أو الثاني أو الثالث ويتلوه كذا وكذا، هذا إذا لم يكمل الكتاب. أما في حالة إكماله الكتاب فليذكر تمّ الكتاب الفلاني، ففيه فوائد كثيرة.

ومن بين الأمور المتبعة في نسخ الكتب الاهتمام بصحّة ما ينقله وأن يجتنب التعليق وهو مصطلح يقصد به خلط الحروف التي ينبغي تفرقتها. وأن يجتنب أيضاً المشق وهي سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف. وفي هذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبينه».

وعلى الكاتب ألا يكتب الكتابة الدقيقة مراعاة لكبار السن وضعاف البصر. والكتابة بالحبر أولى من المداد، وينبغي ألا يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجري ولا رخواً فيسرع إليه الحفى. قال بعضهم: «إذا أردت أن تجوّد خطك فأطل جلفتك وأسمنها، وحرّف قطتك وأيمنها، ولتكن السكين حادة جداً لبراية الأقلام وكشط الورق ولا تستعمل في غير ذلك، وليكن ما يسقط عليه القلم صلباً»[1].

وعن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام، يا معاوية ألقِ الدواة وحرّف القلم وانصب الباء وفرّق السين ولا تعوّر الميم وحسّن الله، ومد الرحمن، وجوّد الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك.

غير أنه ما كان لحركة الوراقة أن تنمو ولحركة التأليف والترجمة أن تزدهر، لولا توصّل المسلمين إلى صناعة الورق. فقد استخدم العرب في العصر الجاهلي وبداية العصور الإسلامية الرقوق للكتابة عليها وأطلقوا عليها الأديم وهو الجلد الأحمر المدبوغ، كما استخدم العرب العسب أي جريد

(١) عبد التواب شرف الدين. الموسوعة العربية في الوثائق والمكتبات. ص ٨٠.

النخل بعد كشط خوصه، والعظام، وأكتاف الإبل، واللخاف وهي حجارة رقيقة بيضاء.

ويقال إن أول من كتب آدم على الطين، ثم أخذت الأمم بعد ذلك تكتب على الحجارة والنحاس والخشب وورق الأشجار والتوز والجلود. وتوصّل المصريون إلى صناعة أوراق البردى أو مايسمى بالقرطاس المصري، فاستخدموه في كتاباتهم وأرسلوه إلى بعض الأمم آنذاك. وكانت الرومان تكتب في الحرير الأبيض والرق وفي الفلجان وهو جلود الحمير الوحشية. أما الفرس فكانت تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم. واستخدم الهنود النحاس والحجارة والحرير الأبيض للكتابة عليها. وتوصّل الصينيون إلى صناعة الورق واحتكروا هذه الصناعة ردحاً من الزمن.

وكانت العرب على دراية بالرق والقرطاس وهي أوراق البردى المصرية والصحف المستخدمة من الجلود. وذكر القرآن الكريم تلك المواد في آيات مختلفة. فبالنسبة للرق قال تعالى: **﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾**. كما ورد ذكر القرطاس في قوله تعالى: **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه﴾**، وورد ذكر الصحف في قوله تعالى: **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾**.

وتجمع المصادر التاريخية أن صناعة الورق نقلها العرب عن الصينيين بعد استيلاء المسلمين على سمرقند سنة ٧١٢ م. وكان الصينيون يحتفظون بسر صناعة الورق لأنفسهم محاولين عدم تسريب سر تلك الصناعة من أجل احتكارها. وعندما استولى العرب على سمرقند وجدوا فيها مصنعاً للورق مما أثار انتباههم وحفزهم فيما بعد على الدخول في صناعة الورق لمعرفتهم بأهميته في الكتابة والنقل. ويذكر الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش في كتابه «تاريخ الكتاب» من أن المؤرخين العرب سجلوا حادثة لها ما يؤكدها في المصادر الصينية تتعلق ببداية إنتاج وصنع الورق في العالم العربي. وكما يروي أولئك المؤرخون فقد اندلع في صيف سنة ٧٥١ م نزاع بين قبيلتين تركيتين في آسيا الوسطى وطلبت حينئذ كل قبيلة المساعدة من جيرانها، الأولى من العرب والثانية من الصينيين. وفازت القبيلة التي كان يدعمها العرب ووقع في الأسر بعض الصينيين الذين على دراية بصناعة الورق.

فاقتاد العرب هؤلاء الأسرى إلى مدينة سمرقند وأسسوا بمساعدتهم أول مصنع للورق. وأصبحت هذه المدينة مشهورة بورقها الممتاز وكانت تنتجه وتصدّره إلى البلدان العربية وبخاصة بغداد[1].

أسس أول مصنع للورق في بغداد سنة ٧٩٤ م في محلة دار القز ناقلين بذلك صناعة الورق من سمرقند إلى حاضرة الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد الذي اهتم اهتماماً شديداً بصناعة الورق واستخدامه لدرجة أنه ألزم الناس ألا تكتب إلا في الكاغد وهو الورق، وسبب ذلك أن الجلود تقبل التزوير والمحو بخلاف الورق الذي يمنع ذلك. كما أمر بكتابة المصاحف على الورق ضماناً لبقاء الكتابة واستمرارها. وأصبح للورق أنواعه المعروفة لدى الوراقين منها السليماني، والطلحي، والنوحي، والفرعوني، والطاهري، والجعفري.

ومن بغداد انتشرت صناعة الورق في بقية الأقاليم الإسلامية فأسس أول مصنع للورق بمصر سنة ٨٠٠ م، وفي الأندلس سنة ٩٥٠ م. واشتهرت الأندلس بصناعة الورق الجيد وتم تصديره إلى دول أوروبا المجاورة. وقد استفادت أوروبا من تواجد مصانع الورق بالأندلس حيث نقلت هذه الصناعة فيما بعد إلى دولهم. وأدّى احتكاك الأوروبيين أثناء الحروب الصليبية بالمسلمين في بلاد الشام إلى تعرفهم على صناعة الورق ونقلها إلى بلدانهم. فقد أسس أول مصنع لإنتاج الورق في صقلية سنة ١١٠٢ م، وشهدت إيطاليا صناعة الورق سنة ١١٥٤ م، والمانيا سنة ١٢٢٨ م. أما انجلترا فقد أسست أول مصنع للورق على أراضيها سنة ١٣٠٩ م أي بعد مضي أكثر من ٥٠٠ سنة على إنشاء أول مصنع للورق في بغداد.

ويرجع الفضل في صناعة واستخدام الورق أو الكاغد كما يسمى إلى الفضل بن يحيى الذي أشار على هارون الرشيد بصناعته لاستخدامه في الدواوين والسجلات ورسائل السلطان وصكوكه. ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: «وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع

---

(١) الكسندر ستيبتشفيتش. تاريخ الكتاب. القسم الأول. ص ٢٣٦.

ذلك، فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والاتقان. ثم طمى بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه»[1].

ويؤكد المقريزي والقلقشندي بأن جعفر البرمكي هو أول من اتخذ الكاغد وتداوله الناس بعده. وقد وصف القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» أنواع الورق في أيامه بقوله: «وحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفاً صقيلاً متناسب الأطراف صبوراً على مرور الزمان. وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشيته وتناسب أجزائه وقطعه وافر جداً ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة. . . ودونه في المرتبة الشامي ودونهما في المرتبة الورق المصري وقلما يصقل وجهاه معاً ودون ذلك ورق أهل المغرب والفرنجة فهو رديء جداً سريع البلى قليل المكث. ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء».

أدى انتشار الورق وما صاحبه من انتشار التأليف والترجمة إلى ظهور طبقة جديدة في المجتمع العباسي لها ارتباطها بالورق والكتابة سميت بالوراقين. وتناول المؤرخون في مصادرهم طبقة الوراقين والأدوات التي يستخدمونها ذاكرين أن الوراقة عبارة عن عملية النسخ وما يتبع ذلك من تزويق وتصوير وتذهيب وتصحيح وتجليد الكتب وبيعها. وكذلك بيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وما شابه ذلك.

وأصبحت للوراقين حوانيتهم الخاصة بهم التي امتلأت بها شوارع بغداد في القرنين الثاني والثالث الهجري، حتى بلغت في القرن الأخير أكثر من مائة حانوت، وأصبح لهم سوقاً تعرف بسوق الوراقين. وأضحت تلك الحوانيت عبارة عن مراكز ثقافية يتجمع فيها الكتاب والأدباء والعلماء من مختلف التوجهات، وتقام فيها المناظرات ويحتدم فيها النقاش الخاص بأمور الأدب والفكر.

---

(١) ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون. جـ ٢. ص ٩٧٤.

وتذكر زيغرد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» انتشار حوانيت الكتب وما يجري بها بقولها: «ففي سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثر من مئة متجر كان المتعلمون من أنحاء العالم الإسلامية يجتمعون، هنا يفتش الفيلسوف والشاعر والفلكي عما صدر حديثاً من الكتب، وهنا ينقب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهنالك يتناقشون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تقرأ عليهم برمتهم مقتطفات مما كتاب»[1].

لم تقتصر الوراقة على أهل بغداد فقط وإنما امتدت لتشمل بقية البلدان الإسلامية، فقد وجدت في القاهرة والشام وغيرها من المدن والأقاليم الإسلامية. وكان في مدينة قرطبة عدد كبير من الخطاطين الذين كانوا ينسخون الكتب في حوانيتهم الخاصة بهم، ثم يبيعونها في المدن الكبيرة. وكان لنشاط الخطاطين في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي أهمية كبيرة. فقد كان ينجز حسب بعض التقديرات ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف كتاب في قرطبة وحدها كل عام، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى نمو وازدهار الحركة الفكرية هناك. ومن الجدير ذكره أن النسوة هناك شاركن في أعمال الوراقة وبصورة خاصة أعمال النسخ. ففي إحدى مراكز النسخ كانت تعمل ١٧٠ امرأة في نسخ القرآن الكريم.

ويحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير من الوراقين، ومن بين أقدمهم مالك بن دينار مولى أسامة بن لؤي بن غالب، كان يكتب المصاحف بأجرة ومات سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م. ومن بين الوراقين السري الرفاء الشاعر المشهور المتوفى سنة ٣٦٠ هـ، وأبو علي بن شهاب العكبري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ، وأبو علي القالي العالم اللغوي الذي كان ينسخ الكتب الهامة والنادرة في مكتبة الحكم، كما كان يراجع ما ينسخه بقية الخطاطين والنساخ، وعلان الشعوبي وكان له دكان وراقة زمن المأمون. ومن بين أشهر الوراقين ابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) صاحب كتاب «الفهرست» الذي احتوى على أسماء جميع الكتب المؤلفة والمترجمة التي

---

(١) زيغرد هونكه. مصدر سابق. ص ٣٩٠.

ظهرت حتى ذلك الحين، وكان أغلب ما كتبه وليد خبرته ومعرفته الشخصية بها كتاجر كتب وهي إحدى الوظائف التي يقوم بها الوراقون. كما اشتهر ياقوت الحموي بالوراقة وذكر في «معجم الأدباء» مجموعة من الوراقين.

تفنن الوراقون في زخرفة الكتب بالذهب والفضة، وكانت بعض كتبهم تخط على ورق صيني، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير، ويجلّد بالأدم الجيد. ومن بين الكتب المزخرفة كتاب أهدي للوزير نظام الملك، وهو عبارة عن مصحف بخط أحد الكتّاب الماهرين، حيث خط كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالمداد الأحمر، وتفسير غريبه بالأخضر، وإعرابه بالأزرق، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للاقتباس في العهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني[1].

وكان الوراق يختار الورق ويقوم بنسخ الكتاب بنفسه أو ينسخ تحت إشرافه ثم يقوم بمراجعته وتصحيحه كي لا يقع فيه تحريف، ومن ثم يجلده ويبيعه. وأدت الوراقة إلى قيام بعض الحرف المتعلقة بها مثل النسخ، والتجليد، والخط، والزخرفة، كما أدت إلى استخدام رزم من الأوراق وكميات من الحبر صنعت من السناج والصمغ العربي استهلكتها أيدي الوراقين على الكتابة كل عام. أما الأدوات المستخدمة في الوراقة فهي بالإضافة إلى ما تم ذكره من أقلام وحبر وورق، فقد استخدمت السكين لبري الأقلام، كما استخدم الملقط أو المعصمة وهي قطعة صلبة من الحجارة يبرى عليها القلم لاستواء البري، وكانت تستخدم قطع الرخام في بعض الأحيان بدل الحجارة الصلبة للغرض ذاته. واستخدم الوراقون المقلمة وهو ما توضع فيه الأقلام، واستخدموا المفرشة وهي عبارة عن قطعة من خرق الكتان أو الصوف تفرش تحت الأقلام. ومن بين المواد التي كانت تستخدم عند الوراقين الممسحة وكانت تتخذ من خرق متراكمة ذات وجهين ملونين من صدف أو حرير أو غير ذلك من القماش النفيس يمسح بها القلم عند الفراغ من الكتابة، كي لا يجف عليه الحبر فيفسده.

---

(١) عبد اللطيف الصوفي. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات. ص ٤٩.

أصبحت شروط ومعايير النجاح في امتهان حرفة الوراقة واضحة من ضمنها جودة الخط وصحة النقل والقدرة على تسويق الكتاب. وقد لازمت مهنة الوراقة عملية ضبط الكتب وتصحيحها ومقابلتها، أي أنه تتم مراجعة ما نسخ بالنسخة الأصلية التي نقل منها أو قراءتها على أحد العلماء أو الشيوخ للتأكد من صحة النسخة المنقولة. وفي ذلك قال عروة بن الزبير لابنه هشام، كتبت؟ قال: نعم. قال: عرضت كتابك أي راجعته مع النسخة الأصلية، قال: لا. قال: لم تكتب.

كان المؤلف يختار بنفسه من ينسخ كتبه، وإن كان في الغالب يتم اختيار أحد طلبته أو أصدقائه. كما كان المؤلف يوزّع العمل على أكثر من ناسخ إذا كان كتابه يتكوّن من عدة مجلدات كما حدث لابن عساكر حين اختار لنسخ كتابه «تاريخ دمشق» المكوّن من ثمانين مجلداً عشرة من الناسخين انتهى كل واحد منهم من نسخ ما سلم إليه في سنتين.

ومن بين من انضوى تحت مظلة الوراقين سماسرة الكتب التي تركزت مهمتهم في شراء وبيع الكتب وبصورة خاصة النادرة منها. وكانوا يجوبون الأصقاع الإسلامية المختلفة من أجل شراء الكتب النادرة والتعرف على آخر النتاج الفكري سواء كان مؤلفاً أم مترجماً، ويعرضون الأموال الطائلة لشراء الكتب القيّمة.

وتروي المصادر التاريخية أن أحد هؤلاء الدلالين سافر من بغداد متوجهاً إلى القاهرة من أجل شراء وجلب الكتب النادرة أو القيمة. وحال وصوله القاهرة سمع بأخبار طبيبها المشهور إبراهيم بن الصوفان الذي وظف مجموعة من النساخ أشرف عليهم بنفسه لنسخ الكتب الطبية، مما أدى إلى تكوين مكتبة ضخمة لديه من تلك الكتب. وقد حاول التاجر البغدادي شراء تلك الكتب وتم الاتفاق على شراء عشرة آلاف مجلد. غير أن الأمور لم تسر كما كان يراها التاجر العراقي، فقد سمع الوزير الأفضل بذلك فاستدعى إبراهيم وأقنعه بالعدول عن بيعها وأن يبقيها في مصر ودفع له من جيبه الخاص المبلغ الذي كان السمسار قد عرضه ثمناً لتلك الكتب.

وكان لتجار الكتب وسماسرته خبرة في معرفة الزائف أو المحرف، فهم لا يشترون إلا الكتب التي لم ينلها التشويه أو التحريف. ويروي

الزرقاني محدثاً عن يحيى بن أكثم: أن يهودياً دخل على المأمون فجالسه، فأعجب به المأمون، ورغّبه في الإسلام فلم يرض. ثم مرت سنة جاء اليهودي بعدها فأسلم. فتعجّب المأمون من ذلك، فأخبره اليهودي بأنه خرج من عنده فنسخ نسخة من التوراة حرّف فيها وباعها فقبلت منه، ثم نسخ نسخة من الإنجيل وباعها محرّفة فقبلت منه، ثم نسخ نسخة من القرآن الكريم فلما جاء بها إلى الوراقين، راجعوا تلك النسخة وردوها إليه بعد اكتشاف التحريف.

والمعروف أن الأدباء الكبار ورجالات الفكر آنذاك كانت لهم اتصالاتهم مع الوراقين، بل أن بعضهم وظّف له وراقاً أو أكثر يقوم بمساعدته في ترتيب كتبه ونسخها ونشرها. ومن بين الأدباء والكتّاب الذين وظّفوا لهم وراقين لنسخ أعمالهم الجاحظ، وابن سلام، والمبرد، والواقدي وغيرهم.

وهكذا أدّى إنتاج الورق إلى بدء مرحلة ذهبية للكتاب الإسلامي، فازداد عدد المؤلفات وبلغت المنافسة على أشدها بين الخلفاء والوزراء والأغنياء على اقتناء الكتب النادرة والغالية الثمن. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير، بينما كان الكبار منهم يُغمرون بالهدايا القيّمة والعطاء الكثير. وتوزع النساخ في الأماكن الثقافية الهامة، فبعضهم أخذ يعمل في المكتبات الرئيسية والعامة. أما كبار النساخ المعروفين بجودة خطهم والذين نالوا شهرة واسعة فكان مكانهم قصور الخلفاء والوزراء، يعيشون فيها وينسخون ما يطلب منهم من مؤلفات لمكتبات تلك القصور.

ومن بين من اشتهروا بجودة خطه، الخطاط المشهور أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م، وكان أديباً وشاعراً واستوزر ثلاث مرات. وهو أول من قرر للخط معايير يضبط بها. وعن ابن مقلة تعلم الخط محمد بن أسد القاري الغافقي المتوفى سنة ٤١٠ هـ/ ١٠١٨ م. وكان يكتب الشعر بخط قريب من الخط المحقق، وتأثر ابن البواب بالغافقي. وكان أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب (المتوفى سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م) رئيس الخطاطين في بغداد وصاحب المعجزات في حسن

الحظ كما يقول عنه ابن الفوطي. بدأ حياته مزوقاً للدور، ثم أصبح مصوراً ومذهباً لختمات المصاحف، ثم أكمل قواعد الخط وهندسته وهذّب طريقة ابن مقلة ونقاها وكساها بهجة وطلاوة. وأنشأ مدرسة للخط استمرت إلى عهد ياقوت المستعصمي. وأتقن ابن البواب خط النرجس، وخط المنثور، وخط المرصع، وخط الحواشي، وخط المقترن، وخط المدمج، وخط المعلق، وخط القصص، وخط الثلث. واخترع ابن البواب عدة خطوط كالخط الريحاني وقد كتبت به المصاحف وكانوا يسمونه خط المصاحف، واستمر هذا الخط بعد خط المحقق زمناً طويلاً. وتعلم الخط عن ابن البواب محمد بن حسن الطيبي ومحمد بن عبد الملك والشيخة المحدثة زينب الملقبة بابنة الابري، المتوفية سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م.

واشتهر في القرن السابع الهجري الشيخ جمال الدين ياقوت المستعصمي الطوشي البغدادي ابن عبد الله المعروف بقبلة الخطاطين (توفي في بغداد سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م)، وكان شاعراً وأديباً. ويعزى إليه الخط الياقوتي، ويقال أنه كتب ألف مصحف ومصحف. وانتهج طريقة ياقوت المستعصمي بعض الخطاطين الذين نالوا شهرة في القرن الثامن الهجري وهم مبارك شاه قطب (المتوفى سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م)، وعبد الله الصيرفي (المتوفى سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م) واشتهر بخط النسخ، ومبارك شاه السيوفي (المتوفى سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ م) واشتهر بالخط الريحاني، ويحيى الصوفي (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م) واشتهر بخط الثلث، وعبد الله أرغون (المتوفى سنة ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م) واشتهر بخط المحقق[١].

أصبحت تجارة الكتب نشطة نتيجة العوامل التي تم ذكرها، وكان الوراقون يفتحون دكاكينهم في العادة أمام الجوامع والمدارس وفي الشوارع التي تكون حركة المارة فيها على أشدها. وارتبط سعر الكتاب بنوعية الخط والناسخ، فقد كانت الكتب التي ينسخها خطاطون معروفون أو تلك التي يكتبها المؤلفون أنفسهم مرتفعة الثمن لدرجة أنه لا يمكن اقتنائها إلا من قبل الأغنياء. فمثلاً بلغ ثمن كتاب المؤرخ المشهور الطبري مئة دينار. وإذا ما

(١) معروف زريق. موسوعة الخطوط العربية وزخارفها. ص ٥٢.

عرفنا أن متوسط أسعار الكتب لا تزيد عن دينار في الأغلب حينذاك، فإن كتاب الطبري يعد من الكتب الغالية والتي لا يمكن للإنسان العادي في ذلك العصر شراؤه. لهذا لجأ الذين لا يملكون هذه الإمكانية إلى نسخ المؤلفات بأنفسهم، أو يعطونها إلى خطاطين مغمورين ينسخونها لهم بثمن يستطيعون دفعه. وكان البعض رغم مقدرته يفضل الكتابة بنفسه كما فعل الطبيب والرحالة القيرواني ابن الجزار، الذي ترك عند وفاته ٢٥٠ طناً من لفائف جلد الغزال كتبها جميعاً بنفسه.

ارتبطت الوراقة ارتباطاً شديداً بنمو المكتبات في البلدان الإسلامية، وعمل البعض منهم في المكتبات الرئيسية، فقاموا بعمليات النسخ والتجليد والتذهيب داخل المكتبة نفسها. كما عمل البعض الآخر كسماسرة كتب، وأرسلوا للخارج من أجل الحصول على كتب نادرة أو حديثة التأليف لإغناء محتويات المكتبات الرئيسية كما فعل المأمون في بغداد، والحاكم بأمر الله في القاهرة، والحكم المستنصر في قرطبة. وأدت هذه العمليات إلى زيادة مقتنيات المكتبات الإسلامية، وإن كان البعض أخذ يرسل سماسرة الكتب لحسابه الخاص نظراً لانتشار عادة حب الكتب واقتنائها التي لم تقتصر على العلماء والأدباء فقط، بل كانت هواية العرب على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم العلمية والثقافية. وتبرز المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه حرص العربي على اقتناء الكتب بقولها: «فكل متعلم من أكبر كبراء الدولة إلى بائع الفحم، ومن قاضي المدينة إلى مؤذن المسجد، هو زبون دائم عند بائع الكتب. إن متوسط ما كانت تحويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر، كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة[1]».

ومن محاسن مهنة الوراقة محافظتها على الكتب من الاندثار. فمن المعروف أن المكتبات مرت عبر العصور الإسلامية المختلفة بمراحل المد والجزر فتارة يتم احترام الكتب وتقديسها وتارة يتم إحراقها ومطاردة العلماء والكتّاب، أو تتعرض هذه البلاد أو تلك لغزو يتم فيه سلب الكتب ونهبها أو حرق وتدمير المكتبات بأكملها كما حدث لمكتبة بيت الحكمة في بغداد

---

(١) زيغرد هونكه. شمس العرب تستطع على الغرب. ص ٣٨٨.

وعيرها من المكتبات الرئيسية أو الخاصة. غير أن تواجد نسخ من الكتاب موزعة في بقية الأصقاع الإسلامية ساهم في المحافظة على بعضها من الضياع أو الحرق. ومما يثبت ذلك تواجد العديد من الكتب والمخطوطات العربية والإسلامية في متاحف باريس، ولندن، وموسكو، وبعض الدول العربية والإسلامية كمصر، وسورية، وإيران، وتركيا، كما أن البعض منها ينتظر التنقيب مستقبلاً.

الفصل السابع



حكم وطرائف عن العلم والكتّاب

حكم وطرائف عن العلم والكتاب

جاء ذكر العلم والكتّاب في آيات متعددة من الذكر الحكيم، كما أهتم الرسول عليه الصلاة والسلام اهتماماً شديداً بالعلم وحثّ المسلمين على تحصيله ولو في الصين ـ كناية عن البعد ـ فجاءت أحاديثه تصدح بذكر فوائد العلم وأهميته للارتقاء بالإنسانية وتطويرها. واهتم الخلفاء الراشدون بالعلم فواصلوا المسيرة النيّرة بعد الرسول، وأصبح قبس العلم ينير دياجير الظلمة التي كانت مطبّقة على العرب في العصر الجاهلي.

ويأتي العصر الأموي والعباسي والفاطمي فيزداد الاهتمام بالكتب وتشيد المكتبات على اختلاف أنواعها الرئيسية والعامة والخاصة، كما شيّدت المكتبات في المساجد والجوامع والمصحّات الطبية والمدارس. وعبر هذه العصور الإسلامية مر الكتاب بمراحل مختلفة لاقى فيها التكريم والاهتمام والتبجيل، كما لاقى في بعضها الحرق والتمزيق والإهانة. وتزخر المصادر العربية بذكر أحداث وطرائف خاصة بالكتاب عبر تلك العصور سيتم ذكر بعض ما استطعت جمعه وانتقيته من أخبار ونوادر وطرائف وأحداث تتعلق بالكتاب، جمعتها من بطون الكتب وبخاصة كتب التراث الإسلامي كالعقد الفريد لابن عبد ربّه، وصبح الأعشى للقلقشندي، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ومعادن الجواهر ونزهة الخواطر للسيد محسن الأمين، وعيون الأخبار للدينوري، وغير ذلك من كتب التراث العربي الإسلامي. وتم تقسيم هذا الفصل وفق التالي:

أولاً: الآيات الواردة في القرآن الكريم في فضل العلم.

ثانياً: ما جاء في الآيات الكريمة عن الكتاب.

ثالثاً: ما جاء في فضل العلم وطلبه (من أقوال الرسول والصحابة).

رابعاً: ما قيل في فضل العلم من الشعر.

خامساً: ما قيل في الكتاب والكتّاب من الشعر.

أ ـ الكتاب.

ب ـ إهداء الكتاب.

ج ـ إعارة الكتب.

د ـ الكتّاب.

هـ ـ ذم الكتّاب.

و ـ القلم والحبر.

ز ـ الخط الحسن والخط القبيح.

سادساً: طرائف ونوادر عن العلم والكتاب.

أولاً: الآيات الواردة في القرآن الكريم في فضل العلم:

جاء فضل العلم في الكثير من الآيات الكريمة نورد بعضها.

(١) ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ (٢) ﴿الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ (٣) ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ (٤) ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٥) ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ (٦) ﴿وقل ربي زدني علماً﴾ (٧) ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (٨) ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ (٩)

﴿وتلك حدود الله نبينها لقوم يعلمون﴾ (١٠) ﴿قرآناً عربياً لقوم يعلمون وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (١١) ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ (١٢) ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (١٣) ﴿الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ (١٤) ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (١٥) ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ (١٦) ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (١٧) ﴿وزاده بسطة في العلم﴾.

ثانياً: ما جاء في الآيات الكريمة عن الكتاب:

نورد في هذا القسم جميع الآيات التي جاء فيها ذكر الكتاب مع ذكر الآية واسم السورة ورقمها.

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين	٢ م البقرة ٢
أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب	٤٤ م البقرة ٢
وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون	٥٣ م البقرة ٢
ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ	٧٨ م البقرة ٢
فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم	٧٩ م البقرة ٢
أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض	٨٥ م البقرة ٢
ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل	٨٧ م البقرة ٢
ولما جاءهم كتاب من عندالله مصدق لما معهم	٨٩ م البقرة ٢
نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب	١٠١ م البقرة ٢
كتاب الله وراء ظهورهم	١٠١ م البقرة ٢
ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين	
أن ينزل عليكم من خير من ربكم	١٠٥ م البقرة ٢
ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً	١٠٩ م البقرة ٢
وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب	١١٣ م البقرة ٢
الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به	١٢١ م البقرة ٢
يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة	١٢٩ م البقرة ٢

يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ٧١ م آل عمران ٣
وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين
آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ٧٢ م آل عمران ٣
ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ٧٥ م آل عمران ٣
وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ٧٨ م آل عمران ٣
لتحسبوه من الكتاب ٧٨ م آل عمران ٣
وما هو من الكتاب ٧٨ م آل عمران ٣
ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ٧٩ م آل عمران ٣
كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب ٧٩ م آل عمران ٣
وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ٨١ م آل عمران ٣
قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ٩٨ م آل عمران ٣
قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله ٩٩ م آل عمران ٣
إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم
بعد إيمانكم كافرين ١٠٠ م آل عمران ٣
ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ١١٠ م آل عمران ٣
من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ١١٣ م آل عمران ٣
تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ١١٩ م آل عمران ٣
يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ١٦٤ م آل عمران ٣
جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ١٨٤ م آل عمران ٣
ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين
أشركوا أذى كثيراً ١٨٦ م آل عمران ٣
وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ١٨٧ م آل عمران ٣
وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ١٩٩ م آل عمران ٣
والمحصّنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ٢٤ م النساء ٤
ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ٤٤ م النساء ٣
يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا ٤٧ م النساء ٤

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت	٥١ م النساء ٤
فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما	٥٤ م النساء ٤
إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس	١٠٥ م النساء ٤
وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم	١١٣ م النساء ٤
ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب	١٢٣ م النساء ٤
قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء	١٢٧ م النساء ٤
ولقد وصيّنا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم	١٣١ م النساء ٤
آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله	١٣٦ م النساء ٤
والكتاب الذي أنزل من قبل	١٣٦ م النساء ٤
وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم	١٤٠ م النساء ٤
يسألك أهل الكتاب إن تنزل عليهم كتاباً من السماء	١٥٣ م النساء ٤
وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته	١٥٩ م النساء ٤
يأهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق	١٧١ م النساء ٤
وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم	٥ م المائدة ٥
والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم	٥ م المائدة ٥
يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً	١٥ م المائدة ٥
مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير	١٥ م المائدة ٥
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين	١٥ م المائدة ٥
يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل	١٩ م المائدة ٥
والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله	٤٤ م المائدة ٥
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق	٤٨ م المائدة ٥
مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه	٤٨ م المائدة ٥
الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب	٥٧ م المائدة ٥
قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله	٥٩ م المائدة ٥
ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم	٦٥ م المائدة ٥

قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ٦٨ م المائدة ٥
قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ٧٧ م المائدة ٥
وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ١١٠ م المائدة ٥
الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٢٠ م الأنعام ٦
ما فرطنا في الكتاب من شيء ٣٨ ك الأنعام ٦
ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ٥٩ ك الأنعام ٦
أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ٨٩ ك الأنعام ٦
قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ٩١ م الأنعام ٦
وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذين بين يديه ٩٢ ك الأنعام ٦
أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ١١٤ م الأنعام ٦
والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ١١٤ م الأنعام ٦
ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ١٥٤ ك الأنعام ٦
وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ١٥٥ ك الأنعام ٦
أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ١٥٦ ك الأنعام ٦
أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ١٥٧ ك الأنعام ٦
كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ٢ ك الأعراف ٧
أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ٣٧ ك الأعراف ٧
ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة ٥٢ ك الأعراف ٧
فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ١٦٩ م الأعراف ٧
ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ١٦٩ م الأعراف ٧
والذي يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر
المصلحين ١٧٠ م الأعراف ٧
إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ١٩٦ ك الأعراف ٧
لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٨ م الأنفال ٨
وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ٧٥ م الأنفال ٨
ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ٢٩ م التوبة ٩

إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله	٣٦ م التوبة ٩
آلر تلك آيات الكتاب الحكيم	١ ك يونس ١٠
ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب	٣٧ ك يونس ١٠
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين	٦١ ك يونس ١٠
فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك	٩٤ م يونس ١٠
آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير	١ ك هود ١١
ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين	٦ ك هود ١١
ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة	١٧ م هود ١١
ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه	١١٠ ك هود ١١
آلر تلك آيات الكتاب المبين	١ ك يوسف ١٢
المـر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق	١ م الرعد ١٣
والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك	٣٦ م الرعد ١٣
وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب	٣٨ م الرعد ١٣
يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب	٣٩ م الرعد ١٣
قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب	٤٣ م الرعد ١٣
آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور	١ ك إبراهيم ١٤
آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين	١ ك الحجر ١٥
وماا أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم	٤ ك الحجر ١٥
وما أنزل عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه	٦٤ النحل ١٦
ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة	٨٩ ك النحل ١٦
وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل	٢ ك الإسراء ١٧
وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدّن في الأرض	٤ ك الإسراء ١٧
كان ذلك في الكتاب مسطوراً	٥٨ ك الإسراء ١٧
الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً	١ ك الكهف ١٨
واتل ما أوصى إليك من كتاب ربك	٢٧ ك الكهف ١٨
ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه	٤٩ ك الكهف ١٨

مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ٤٩ ك الكهف ١٨
يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ١٢ ك مريم ١٩
واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ١٦ ك مريم ١٩
قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ٣٠ ك مريم ١٩
واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً ٤١ ك مريم ١٩
واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ٥١ ك مريم ١٩
واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد ٥٤ ك مريم ١٩
واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ٥٦ ك مريم ١٩
قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ٥٢ ك طه ٢٠
ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير٨ م الحج ٢٢
ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ٧٠ م الحج ٢٢
ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ٤٩ ك المؤمنون ٢٣
ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ٦٢ ك المؤمنون ٢٣
والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ٣٣ م النور ٢٤
ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ٣٥ ك الفرقان ٢٥
تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ٢ ك الشعراء ٢٦
طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ١ ك النمل ٢٧
قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ٢٩ ك النمل ٢٧
قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد
إليك طرفك ٤٠ ك النمل ٢٧
وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين ٧٥ ك النمل ٢٧
تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبإ موسى ٢ ك القصص ٢٨
ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ٤٣ ك القصص ٢٨
قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ٤٩ ك القصص ٢٨
الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ٥٢ م القصص ٢٨
وما كنت ترجوا أن يلق إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ٨٦ ك القصص ٢٨

ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ٢٧ ك العنكبوت ٢٩
اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ٤٥ ك العنكبوت ٢٩
ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ٤٦ ك العنكبوت ٢٩
وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ٤٧ ك العنكبوت ٢٩
فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ٤٧ ك العنكبوت ٢٩
وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ٤٨ ك العنكبوت ٢٩
أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ٥١ ك العنكبوت ٢٩
لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ٥٦ ك الروم ٣٠
تلك آيات الكتاب الحكيم ٢ ك لقمان ٣١
ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب
منير ٢٠ ك لقمان ٣١
تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٢ ك السجدة ٣٢
ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ٢٣ ك السجدة ٣٢
وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ٦ م الأحزاب ٣٣
كان ذلك في كتاب مسطوراً ٦ م الأحزاب ٣٣
وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ٢٦ م الأحزاب ٣٣
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٣ ك سبإ ٣٤
وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ١١ ك فاطر ٣٥
جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ٢٥ ك فاطر ٣٥
إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ٢٩ ك فاطر ٣٥
والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ٣١ ك فاطر ٣٥
ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ٣٢ ك فاطر ٣٥
وآتيناهما الكتاب المستبين ١١٧ ك الصافات ٣٧
كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ٢٩ ك ص ٣٨
تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ١ ك الزمر ٣٩
إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ٢ ك الزمر ٣٩

إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق	٤١ ك الزمر ٣٩
وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب	٦٩ ك الزمر ٣٩
تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم	٢ ك غافر ٤٠
ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب	٥٣ ك غافر ٤٠
الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون	٧٠ ك غافر ٤٠
كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون	٣ ك فصلت ٤١
وإنه لكتاب عزيز	٤١ ك فصلت ٤١
ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه	٤٥ ك فصلت ٤١
وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب	١٤ ك الشورى ٤٢
وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب	١٥ ك الشورى ٤٢
الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان	١٧ ك الشورى ٤٢
ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان	٥٢ ك الشورى ٤٢
حم والكتاب المبين إنا جعلنا قرآناً عربياً	٢ ك الزخرف ٤٣
وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم	٤ ك الزخرف ٤٣
حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة	٢ ك الدخان ٤٤
حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	٢ ك الجاثية ٤٥
ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة	١٦ ك الجاثية ٤٥
حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	٢ ك الأحقاف ٤٦
آتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم	٤ ك الأحقاف ٤٦
ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة	١٢ ك الأحقاف ٤٦
وهذا كتاب مصدق لساناً عربيا	١٢ ك الأحقاف ٤٦
قد علمنا ما تقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ	٤ ك ق ٥٠
والطور وكتاب مسطور	٢ ك الطور ٥٢
إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون	٧٨ ك الواقعة ٥٦
ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل	١٦ م الحديد ٥٧
ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب	٢٢ م الحديد ٥٧

وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط	٢٥ م الحديد ٥٧
وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب	٢٦ م الحديد ٥٧
لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله	٢٩ م الحديد ٥٧
هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم	٢ م الحشر ٥٩
يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب	١١ م الحشر ٥٩
يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة	٢ م الجمعة ٦٢
أم لكم كتاب فيه تدرسون	٣٧ ك القلم ٦٨
ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً	٣١ ك المدثر ٧٤
ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون	٣١ ك المدثر ٧٤
كلا إن كتاب الفجار لفي سجين	٧ ك المطففين ٨٣
وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم	٩ ك المطففين ٨٣
كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين	١٨ ك المطففين ٨٣
وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم	٢٠ ك المطففين ٨٣
لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة	١ م البينة ٩٨
وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة	٤ م البينة ٩٨
إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها	٦ م البينة ٩٨
وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً	١٤٥ م آل عمران ٣
إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً	١٠٣ م النساء ٤
يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء	١٥٣ م النساء ٤
ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين	٧ ك الأنعام ٦
ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً	١٣ ك الإسراء ١٧
ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه	٩٣ ك الإسراء ١٧
لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون	١٠ ك الأنبياء ٢١

أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه	٤٠ ك فاطر ٣٥
الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً	٢٣ ك الزمر ٣٩
أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون	٢١ ك الزخرف ٤٣
قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى	٣٠ ك الأحقاف ٤٦
وكل شيء أحصيناه كتاباً	٢٩ ك النبإ ٧٨
اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً	١٤ ك الإسراء ١٧
فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين	١٥٧ ك الصافات ٣٧
هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق	٢٩ ك الجاثية ٤٥
فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم	٧١ ك الإسراء ١٧
فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه	١٩ ك الحاقة ٦٩
وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه	٢٥ ك الحاقة ٦٩
فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً	٧ ك الانشقاق ٨٤
وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً	١٠ ك الانشقاق ٨٤
كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون	٢٨ ك الجاثية ٤٥
فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم	٧١ ك الإسراء ١٧
اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم	٢٨ ك النمل ٢٧
يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب	١٠٤ ك الأنبياء ٢١
وما آتيناهم من كتب يدرسونها	٤٤ ك سبإ ٣٤
فيها كتب قيمة	٣ م البينة ٩٨
كل من آمن بالله وملائكته ورسله	٢٨٥ م البقرة ٢
ومن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر	
فقد ضلّ ضلالاً بعيداً	١٣٦ م النساء ٤
وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين	١٢ م التحريم ٦٦

ثالثاً: ما جاء في فضل العلم وطلبه (من أقوال الرسول وعظماء المسلمين):

قال الرسول عليه الصلاة والسلام في فضل العلم وطلبه:

«لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل».

«اجعل العلم مالك والأدب حليتك».

«الناس عالم ومتعلم، وسائرهم همج».

«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم. رضا بما يطلب. ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله».

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

«اطلبوا العلم ولو بالصين».

«فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر».

من خرج في طلب العلم فهو خارج في سبيل الله حتى يرجع».

«من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة».

ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر».

«الكواكب زينة السماء والعلماء زينة أمتي».

اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

«العلماء ورثة الأنبياء».

«كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك».

«فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

«فضل العلم خير من فضل العبادة».

«إن قليل العمل مع العلم كثير، كما أن كثيره مع الجهل قليل».

«ارحموا عزيز قوم ذل، ارحموا غنياً افتقر، ارحموا عالماً ضاع بين جهال».

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

«من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلّمه أو يعلّمه فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله».

قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«قيمة كل إنسان ما يحسن».

«كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه ما لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذماً أن يبرأ منه من هو فيه».

«يحتاج المال إلى حافظ والعلم يحفظ صاحبه».

«منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا».

«يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله».

«تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وهو عند الله لأهله قربة».

«العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها».

«قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والحكمة ضالة المؤمن فليطلبها ولو في يدي أهل الشرك».

«الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً».

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أيها الناس تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله».

«نظر عمر بن الخطاب إلى رجل في هيئة نفيسة فقال ألست ابن قيس بالبصرة، قال نعم ولكني كاتب. فقال لله در العلم ما زال يرفع أهله».

قال عبد الله بن مسعود: «إن الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم».

قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج، إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال إن أمقت عبيدي إلى الجاهل المستخف بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم، وإن أحب عبيدي إلي التقي الطالب للثواب الجزل الملازم للعلماء».

قال ابن شهاب الزهري: «إن الاعتصام بالسنّة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً، وفي نشر العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب الدين ذهاب ذلك كله».

قال عمر بن الخطاب: «لا أدركت لا أنا ولا أنت زماناً يتغاير الناس فيه على العلم كما يتغايرون على الأزواج».

قال سلمان: «علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه».

قال مالك بن أنس رضي الله عنه: «ذُلاً وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه».

قال محمد بن علي الباقر عليهما السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد» وقوله: «العالم كمن معه شمعة تضيء للناس فكل من أبصر بشمعته دعا له بخير وكذلك العالم معه شمعة يزيل بها ظلمة الجهل والحيرة، فكل من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار».

قال الحسن بن علي عليه السلام: «ما ترك قول الله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ عالماً يظن أن علمه كثير».

قال الحسين بن علي عليه السلام: «لو أن العالم كل ما قال أحسن وأصاب لأوشك أن يجن من العجب وإنما العالم من يكثر صوابه».

* * *

قال المسيح عليه السلام: «لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ولا

تمنعوها أهلها فتظلموهم وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينتفع به».

قيل كان لسليمان عليه السلام من الملك ما لم يكن لغيره على الإطلاق، ولم يفتخر به يوماً، وافتخر بالعلم في قوله: «يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير».

رابعاً: ما قيل في فضل العلم من الشعر:

قال الطائي لمحمد بن عبد الملك:

أبا جعفر، إن الجهالة أمها ... ولودُ وأم العلم جذاء حائل

قال الخليل بن أحمد:

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي ... ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

قال يزيد بن الوليد بن عبد الملك:

إذا ما تحدّثت في مجلس ... تناهى حديثي إلى ما علمت

ولم أعدُ علمي إلى غيره ... وكان إذاما تناهى قصرت

قال زيادة بن زيد:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... أطال فأملى أم تناهي فأقصرا

ويخبرني عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيّب المرء مخبرا

قال ابن الرّقاع:

ولقد أصبتُ من المعيشة لذة ... ولقيت من شظف الخطوب شدادها

وعلمت حتى لست أسأل عالماً ... عن حرف واحدة لكي ازدادها

قال شاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النسب

وقال آخر:

ما ضرّ من حاز التأدب والنهي ... أن لا يكون من آل عبد مناف

وقال آخر:

العلم يُحيي قلوب الميتين كما ... تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجلّي سواد الظلمة القمر

وقال شاعر:

العلم يرفع بالخسيس إلى العلا ... والجهل يقعد بالفتى المنسوب

قال صالح بن عبد القدوس:

قد يجمع المرء مالاً ثم يسلبه ... عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوطاً به أبداً ... فلا يحاذر منه الفوت والطلبا

قال الشاعر:

يُعد رفيع القوم من كان عالماً ... وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حل أرضاً عاش فيها بعلمه ... وما عالم في بلدة بغريب

قال الإمام علي عليه السلام:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

قال أبو حامد الغرناطي (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ):

العلم في القلب ليس العلم في الكتب ... فلا تكن مغرماً باللهو واللعب
فاحفظه وافهمه واعمل كي تفوز به ... فالعلم لا يجتنى إلا مع التعب

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته أباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يعظم أمره القوم الكرام

وقال:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

وإن صغير القوم إن كان عالماً　　كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال:

أخي لن تنال العلم إلا بستة　　سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة　　وصحبة أستاذ، وطول زمان

وقال أيضًا:

علمي معي حيثما يممت ينفعني　　قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي　　أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وقال رضي الله عنه:

أصبر على مر الجفا من معلم　　فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة　　تجرع ذل الجهل طول حياته

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي　　لا خدم من لاقيت لكن لأخدما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم　　ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا　　محياه بالأطماع حتى تجهما

قال آخر:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة　　عليك، ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علماً فإنما　　يصدق قول المرء ما هو فاعله

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما أصعب العلم! وما أوسعه!　　من ذا الذي يقدر أن يجمعه
إن كنت لا بد له طالباً　　محاولاً فالتمس أنفعه

قالوا:

العلم صيد والكتابة قيده　　قيد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة　　وتتركها بين الخلائق طالقة

وقيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيى بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

وقول القائل:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة ... أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

خامساً: ما قيل في الكتاب والكتّاب من الشعر:

أ ـ الكتاب:

قال المتنبّي:

أعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

وقال آخر:

ولكل صاحب لذة متنزه ... أبداً ونزعة عالم في كتبه

قال الشاعر:

حبيبي من الدنيا الكتاب فليس لي ... إلى غيره ما بي إليه من الفقر
فكرسيه حجري إذا كنت قاعداً ... وإن اضطجع افرشه مستلقياً صدري

وقيل:

اجعل جليسك دفتراً في نشره ... للميت من حكم العلوم نشور
ومفيد آداب ومؤنس وحشة ... وإذا انفردت فصاحب وسمير

قال ابن يسير:

فصرت في البيت مسروراً به جذلاً ... جاراً لبوأة لا شكوى ولا شغب
فرداً يحدّثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب

قال أحدهم:

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب ... تلهو به إن ملك الأحباب
لا مفشياً سراً إذا استودعته ... وتفاد منه حكمة وصواب

قال الرفاء:

اجعل جليسك دفتراً في نشره | للميت من حكم العلوم نشور
ومفيد آداب ومؤنس وحشة | وإذا انفردت فصاحب وسمير

قال ابن الرومي في الكتاب:

متمنطق من جلده | متختم من خصره
أبداً تراه وصدره | في بطنه أو ظهره

وأنشد أبو محمد الخازن لنفسه قائلاً:

فدفتري روضتي ومحبرتي | غدير علمي وصارمي قلمي
وراحتي في قرار صومعتي | تعلمني كيف موقع القسم

قال شاعر:

تحرض على تجويد كتبك إنها | مناهل ورّاد الحجى والفوائد

قال ابن يسير:

وأحصر بالعيِّ في مجلسي | وعلمي في الكتب مستودع
فمن يك في علمه هكذا | يكن دهره القهقرى يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً | فجمعك للكتب لا ينفع

قال آخر:

عليك بالحفظ دون الجمع في كتب | فإن للكتب آفات تفرّقها
الماء يغرقها والنار تحرقها | والفأر يخرقها واللص يسرقها

قال أحدهم:

ليس بالعلم ما حوى القمطر | ما العلم إلا ما حواه الصدر

قال أبو تمام في تفضيله السيف على الكتاب:

السيف أصدق أنباءً من الكتب | في حده الحد بين الجد واللعب

وقيل:

ليست علومك ما حوته دفاتر | لكن علومك ما حوته صدور

قال الشاعر:

غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي سمعي ودفترها قلبي

قال بعض الشعراء في قوم يجمعون الكتب ولا يعلمون:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيِّدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري المطيُ إذا غدا بأحمالها أرواح ما في الغرائر

ب ـ إهداء الكتاب:

قال أحدهم:

ورد الكتاب فلا عدمت أناملاً قد رصعت في الطرس در سطوره
فلثمته وشممت طيب أريجه فحييت باستنشاق عرف عبيره

قال آخر:

أتاني كتاب من علي جنابكم كتاب كريم رائق اللفظ والمعنى
سررت به حتى تخيلت أنه كتابي وقد أوتيته باليد اليمنى

وقيل:

ورد الكتاب فسرّني بوروده وملئت من نظري إليه سرورا
فكأنني يعقوب من شغف به إذ عاد من رد القميص بصيرا

وقيل:

سلام كأنفاس النسيم مع الفجر وأزكى تحيّات معطرة النشر
على ذي وداد كلما طال عهده تمكن ما بين الجوانح والصدر

وقال آخر:

كتبت فلولا أن هذا محلل وهذا حرام قست لفظك بالسحر
فإن كان روضاً فهو صنع سحابة وإن كان دراً فهو من لجة البحر

وكتب السري بن أحمد الكندي على ظهر جزء أهداه إلى صديق له وجلَّده بجلد أسود:

وادهم يسفر عن ضده كما سفر الليل إذ ودعا

بعثت إليك به أخرساً ... يناجي العيون بما استودعا
صموت إذا زر جلبابه ... لبيب فإن حله أمتعا
تخير أنواره جامعاً ... يروح ويغدو له مجمعا
تلاقي النفوس سروراً به ... وتلقى الهموم به مصرعا
فلا تعدلن به نزهة ... فقد حاز ما تبتغي أجمعا

ج ـ إعارة الكتب:

قال أحد الشعراء:

إني حلفت برب البيت والحرم ... هل فوقها حلفة ترجى لذي قسم؟
أن لا أعير كتاباً فيه لي أرب ... إلا أخا ثقة عندي وذا كرم

وقال آخر:

أيها المستعير مني كتاباً ... إرضَ لي فيه ما لنفسك ترضى

وقال بعضهم معتذراً عن امتناع إعارته:

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة ... وصقيل ذهني والمفرج من همّي
يعز على مثلي إعارة مثله ... وآليته أن لا يفارقه كمي

كتب بعض الأدباء إلى صديق له يطالبه برد كتبه:

ما بال كتبي في يديك رهينة ... حبست على مر الزمان الأطول
ائذن لها في الانصراف فإنها ... كنز عليه إذا افتقرت معولي
ولقد تغنت حين طال ثواؤها ... طال الوقوف على رسول المنزل

قال الشريف ابن طباطبا:

إذا فجع الدهر امرأ بخليله ... تسلى ولا يسلى لفجع الدفاتر

د ـ الكتّاب:

قال أحد الشعراء:

يا كاتباً تنثر أقلامه ... من كفه دراً على الأسطر

وكان الناس يستحسنون لأبي نواس قوله:

يا كاتباً كتب الغداة يسبني … من ذا يطيق براعة الكتاب
لم ترض بالإعجام حين سببتني … حتى شكلت عليه بالإعراب
وأردت إفهامي فقد أفهمتني … وصدقت فيما قلت غير محابي

قال شاعر:

ما الناس إلا كتبه … هم فضة في ذهبه
قد أحرزوا دنياهم … بشعبة من قصبه

وقال ابن الحجاج:

وشمول كأنما اعتصروها … من معاني شمائل الكتاب

هـ ـ ذم الكتَّاب:

قال كشاجم:

بأبي وأمي أنت من مستجمع … تيه القيان ورقة الكتاب

قال شاعر:

تعس الزمان لقد أتى بعجائب … ومحا رسوم الظرف والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدي … فيهم رددتهم إلى الكتاب

وقال آخر:

دعيّ في الكتابة يدعيها … كدعوة آل حرب في زياد

قال شاعر:

جعلتم قراطيس العراق سيوفكم … ولن يقطع القرطاس رأس المكابر
وقلتم خذوا البحر التقي فإنه … أقل امتناعاً واتركوا كل فاجر
فرحنا بقرطاس طويل وطينة … وراحت بنو أعمامنا بالأباعر

قال البحتري:

فلا غرني من بعده عز كاتب … إذ هو لم يأخذ بحجزة رامح

وقال أحدهم:

يعي غير ما قلنا ويكتب غير ما ... يعيه ويقرأ غير ما هو كاتب

و ـ **القلم والحبر:**

(القلم):

قال ابن الرومي:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت شيء لا يقابله ... لا زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت ... إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

قال شاعر:

قلم يفل الجيش وهو عرمرم ... والبيض ما سلت من الأغماد
وهبت له الأجام حين نشابها ... كرم السيول وصولة الأساد

وقال آخر:

في كفه صارم لانت مضاربه ... يسوسنا رغبا إن شاء أو رهبا
السيف والرمح خدام له أبداً ... لا يبلغان به جداً ولا لعبا

وقيل:

إن افتخر الأبطال يوماً بسيفهم ... وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة ... كمدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقال أحدهم:

إن هز أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كُلَّ كمي هز عامله
وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

كما كان يقال:

ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأقطع من رقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

قال ابن طباطبا:

وإذا انتضى قلماً ليخطب ... خلت في يمناه نصلا

كم رد عادية الخطوب ... وكم أعز وكم أذلا
يجري فيؤمن خائفاً ... ويصيب في الأعداء نبلا

قال شاعر:

قلم يمج على العداة سمامه ... لكنه للمرتجين سماء
كم قد أسلت به لعبدك ريقة ... سوداء فيها نعمة بيضاء

وقال أبو الفياض الصابىء في الصاحب بن عباد:

أقال الله للأقدار سيري ... وفي أقلام إسماعيل صبري

قال المتنبّي في تفضيله السيف على القلم:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم

قال أبو الفتح البستي:

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم ... وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب فضلاً وسؤدداً ... مدى الدهر إن الله أقسم بالقلم

قال محمد العلوي في فضل القلم:

أخرس ينبيك بأطرافه ... عن كل ما شئت من الأمر
يذري على قرطاسه دمعة ... يبدي بها السر وما يدري
كعاشق يخفى هواه وقد ... نمت عليه عبرة تجري

وقال آخر في القلم:

وبيت بعلياء الفلاة بنيته ... بأسمى مشقوق الخياشيم يرعف

وصف شاعر الدواة والقلم فقال:

وزنجية لم تلدها الإناث ... وفي جوفها من سواها ولد

وقال آخر:

وأجوف يمشي على رأسه ... يطير حثيثاً على أملس
فهمت بآثاره ما مضى ... وما هو آت ولم يلبس

قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي يصف القلم:

وأسمر طاوي الكشح أخرس ناطق ... له ذملان في بطون المهارق
إذا استعجلته الكف أمطر خاله ... بلا صوت إرعاد ولا ضوء بارق
كأن اللآلي والزبرجد نطقه ... ونور الخزامي في بطون الحدائق

وقال حبيب الطائي يصف القل:

فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
تراه جليلاً شأنه وهو مرهف ... ضنى وسميناً خطبه وهو ناحل

قال البحتري:

ولما التقت أقلامكم وسيوفهم ... أبدت بغاث الطير زرق الجوارح
فلا غرني من بعدكم عز كاتب ... إذا هو لم يأخذ بحجزة رامح

(الحبر والمحبرة):

قال أبو هلال العسكري:

مَنهلةُ من أشرف المناهل ... تضمنُ ريَّ الصفر الذوابل
مركبها ذوائب الأنامل ... إذا مشت عالية الأسافل
بكت على الطرس بدمع هامل ... فارتبطت شوارد المسائل
وكشفت عن غرر الدلائل ... بيضاء تبدو في لباس الثاكل
لكنها تلبسه من داخل

قال كشاجم:

لا أحب الدواة تحشي يراعاً ... هي عندي من الدوي معيبه
قلم واحد وجودة خط ... فإذا زدت ما ستزد أنبوبه

وقال ابن أبي كريمة يصف الدواة والقلم:

ومسودة الأرجاء قد خُضتُ ماءها ... وروَّيتُ من قعر لها غير مُنبط
خميص الحشا يروي على كل مشرب ... أميناً على سر الأمير المسلط

قال شاعر:

وأكرم بجبر بها لجة جواهرها حكم تنتشر

قال أحدهم:

عدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي سمعي ودفترها قلبي

ز ـ الخط الحسن والخط القبيح:

(الخط الحسن):

قال شاعر:

أضحكت قرطاسك عن جنة أشجارها من حكم مثمره
مسودة سطحاً ومبيضة أرضاً كمثل الليلة المقمرة

قال ابن المعتز:

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه تفتح نوراً أو تنظم جوهرا

قال بعض الشعراء:

وما من كاتب إلا ستبقى كتابته وإن فنيت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

قال الصاحب:

غزال يفتن الناس مليح الخد والخط
فهذا النمل في العاج وهذا الدر في السمط

قال أحمد بن إسماعيل:

مستودع قرطاسه حكما كالروض ميز بينه زهره
وكأن أحرف خطه شجر والشكل في إضعافه ثمره

قال شاعر:

إذا ما تجلل قرطاسه وساوره القلم الأرقش
تضمن من خطه حلة كمثل الدنانير أو أنقش
حرفاً تعيد لعين الكليل نشاطاً ويقرؤها الأخفش

(الخط القبيح):

قال الحسن المغربي:

جزعت من قبح خطي وفيه وضعي وحطي
رجعت من بعد حذقي إلى كتابة حطي

قال علي بن محمد العلوي:

أشكو إلى الله خطاً لا يبلغني خط البليغ وحظ المرجينا

قال يحيى بن علي:

مع خط كأنه أرجل البط أو الشرط في طلى الفتيان

قال ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب:

أو ما ترى أسد بن جهور قد غدا متشبهاً بأجلة الكتاب
لكن يُخرِّق ألف طومار إذا ما احتيج منه إلى جواب كتاب

قال أحدهم:

وكاتب أقلامه معودات بالغلط
يكشط ما يكتبه ثم يعيد ما كشط

قال شاعر يهجو أحد الكتاب:

حمار في الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ولو غَرِقتْ ثيابك في المداد

سادساً: طرائف ونوادر عن العلم والكتاب:

نظر المأمون إلى بعض أولاده وفي يده كتاب فقال ما هذا؟ قال: بعض ما يشحذ الفطنة ويؤنس الوحشة. فقال: الحمد لله الذي جعل في أولادي من ينظر إليه بأدبه أكثر مما ينظر إليه بحسبه.

قال الخليل بن أحمد: تكثَّر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ.

وقل العلم ميراث غير مسلوب وقريب غير مغلوب.

سأل الرشيد يوماً من أكرم الناس خدماً، قيل أمير المؤمنين، فقال: لا،

بل أكرمهم خدماً الكسائي فقد رأيته يخدمه الأمين والمأمون وليا عهد المسلمين وليس لي من الخدم مثلهما.

كان يونس يختلف إلى الخليل يتعلم منه العروض فصعب عليه تعلمه، فقال له الخليل يوماً من أي بحر قول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففطن يونس لما عناه الخليل فترك العروض.

قال رجل لخالد بن صفوان: مالي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار وتتناشدون الأشعار، وقع عليَّ النوم؟ قال: لأنك حمار في مسلاخ (أي جلد) إنسان.

قيل للمهلب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم. قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت. قال: ذلك علم حُمل وهذا علم استُعمل.

دخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت والله أحسن منه؛ إن هذا يؤتي أكله كل عام، وأنت تؤتي أكلك كل يوم.

قال رجل لأبي هريرة: أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه. قال: كفاك بترك طلب العلم إضاعة له.

سئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك هذا وأنت فقيه العراقين. فقال إن الملائكة لم تستحي إذ قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

سئل رجل عن شيء فقال لا أدري ولا أدري نصف العلم، فقيل له لكنه النصف الأخس.

قال الخليل رحمه الله العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ثم أنت في إعطائه إياك بعضه مع إعطائك إياه كلك على خطر.

قال أبو نواس: ما رأيت شيئاً إلا قليله أخف من كثيره إلا العلم فإنه كلما كان أكثر كان أخف محملاً.

قال المأمون: العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره فابدأوا بالأهم فالأهم بالفرض قبل النفل إن الأهم المقدم.

قيل من ألف فقد استهدف فإن أحسن فقد استشرق وإن أساء فقد استقذف.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تعلموا العلم فإنه عون للفقير أما إني لا أقول بطلب به الدنيا ولكن يدعوه إلى القنوع.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام قيمة كل امرىء ما يحسنه، وأخذ ابن طباطبا هذا المعنى فقال:

حسود مريض القلب يخفي أنينه	ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت في العلم دائباً	أجمع من عند الرواة فنونه
فيا عاذلي دعني أغالي بقيمتي	فقيمة كل الناس ما يحسنونه

ذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طوله، وكثرة ورقه، لنسخته. فقال ابن الجهم: لكني ما رغبني فيه إلا الذي زهدك فيه، وما قرأت قط كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت.

قال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، فكنت أكتب عنه بعضاً وأدعُ بعضاً، فقل لي: اكتب كل ما تسمع فإن أخسَّ ما تسمع، خير من مكان أبيض.

قال ابن داحة: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس، وينزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرأه، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمنع من كتاب، ولا أسلم من الوحدة، فقيل له: قد جاء في الوحدة ما جاء: فقال ما أفسدها للجاهل.

قال الجاحظ: ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن

يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة، في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء.

خرج الوليد بن يزيد حاجاً ومعه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فكانا ببعض الطرق يلعبان بالشطرنج، فاستأذن عليه رجل من ثقيف فأذن له وستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل سلم فسأله حاجته، فقال له الوليد: أقرأت القرآن؟ قال: لا يا أمير المؤمنين! شغلتني عنه أمور وهنات، قال: أفتعرف الفقه؟ قال: لا، قال: أفرويت من الشعر شيئًا؟ قال: لا، قال: أفعلمت من أيام العرب شيئاً؟ قال: لا، قال: فكشف المنديل عن الشطرنج وقال: شاهك، فقال له عبد الله بن معاوية: يا أمير المؤمنين! قال: أسكت فما معنا أحد.

وفي كتاب للهند: العالم إذا اغترب فمعه من علمه كافٍ، كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه.

وقيل: العلم أشرف الأحساب، والمودة أشد الأسباب.

قال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك، فإن زوال الكرامة بزوالهما. ولكن ليعجبك إن أكرموك لدين أو أدب.

قيل لبزر جمهر: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ فقال: العلماء، فقيل له: فما بال العلماء بأبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء بأبواب العلماء؟ فقال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الأغنياء بفضل العلم.

وكان يقال: أول العلم الصمت والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس نشره.

ويقال: إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

وكان يقال: لا يكون الرجل عالماً حتى يكون فيه ثلاث: لا يحقر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على علمه ثمناً.

وفي حكمة لقمان: إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت

والوقار، وإن العالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار.

قال إبراهيم بن المنصور: سل مسألة الحمقى واحفظ حفظ الأكياس.
وأنشد ابن الأعرابي:

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر وأبعدها إذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيهاً مثله من يسع في عمل بفقه يمهر

وقال بشار بن برد:

شفاءُ العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلاً عما هناك فإنما دُعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

دخل أعرابي مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة علم يتذاكرون الأشعار والأخبار وهو يستطيب كلامهم، ثم أخذوا في العروض فلما سمع المفاعيل والفعول ورد عليه ما لم يعرفه ظن أنهم يأتمرون به فقام مسرعاً وخرج وقال:

قد كان أخذهم في الشعر يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أعرفه كأنه زحل الغربان والبوم
وليت منفلتاً والله يعصمني من التقحم في تلك الجرائيم

قيل الأدب يجلب الجمال ويفيد المال.

وقيل من لم يفد بالأدب مالاً استفاد به جمالاً.

قال الأصمعي لرجل ألا أدلك على خليل إن صحبته زانك وإن احتجت إليه مانك وإن استعنت به أعانك، قال: نعم، فقال: عليك بالأدب.

وجه الرشيد إلى مالك بن أنس ليأتيه فيحدثه. فقال مالك: إن العلم يؤتى، فصار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى جدار. فقال يا أمير المؤمنين من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه. وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به.

قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: اكتب شعري فالكتاب أعجب إلي من الحفظ، إن الأعرابي لينسى الكلمة قد سهرتُ في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام.

حكى أبو جعفر النحاس، أن المأمون قال لأبي العلاء المنقري: بلغني أنك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن في كلامك. فقال: يا أمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمية وكسره الشعر فقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أمياً وكان لا ينشد الشعر. فقال له المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فرددتني رابعاً وهو الجهل، يا جاهل! ذلك في النبي فضيلة وفيك وفي أمثالك نقيصة.

قال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فسلوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكّروه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه.

وقيل كل صناعة تحتاج إلى ذكاء إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءين جمع المعاني بالقلب والحروف بالقلم.

قال الجاحظ: إنما عذب شعر النابغة لأنه كان كاتباً وكذلك زهير.

نال الخلافة أربعة من الكتاب عثمان، وعلي، ومعاوية، وعبد الملك.

قال زياد: ما قرأت كتاباً قط لرجل إلا عرفت مقدار عقله فيه.

قال علي: عالم ومتعلم وما سواهما همج.

ضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمين فخدش ذراعه فدعاه الرشيد إلى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه فرآه الرشيد فسأله فقال ضربني أبو مريم فبعث إليه ودعاه قال فخفت، فلما حضرت قال يا غلام وضئه فسكنت وجلست آكل. فقال ما بال محمد يشكوك، فقلت قد غلبني خبثاً وعرامة. قال: اقتله فلأن يموت خير من أن يموق.

قال سقراط: من لم يصبر على تعلم العلم وتعبه صبر على شقاء الجهل.

أتى طالب علم باب عالم فقال أعطني مما أعطاك الله فأمر له بدراهم، فقال: أنا طالب هدى لا طالب ندى فعلم أوضح لبساً من مال أغنى نفساً.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

نظر المأمون إلى مؤامرة بخط حسن فقال: لله در القلم كيف يزين وشى المملكة.

قال بعض الأدباء: بالحبر تنصاغ حكم الأخبار وبسواده تتضح شبه الآثار.

وقيل لوراق: أخف رداءة خطك بجودة حبرك.

وقيل عطروا كتب علومكم بالحبر فالحبر غالية والكتابة غانية.

كان إدريس النبي عليه السلام أول من خط بالقلم.

حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك القالي الأديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد في غاية الجودة فدعته الحاجة إلى بيعها فاشتراها الشريف المرتضى بستين ديناراً وتصفحها فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن القالي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضنيني

فأرجع الشريف المرتضى النسخة إليه وترك له الدنانير.

قيل لابن دراج وقد أخرج شعر أبي الشمقمق في جلود كوفية ودفتين طائفيتين، لقد ضيع دراهمه من يجود لشعر أبي الشمقمق؟ قال: لا جرم أن

العلم يعطيكم على قدر ما تعطونه ولو استطعت أن أكتبه في سواد عيني أو سويداء قلبي لفعلت.

وقيل إنفاق المال على كتب الأدب يخلفك عليه لباب الألباب. وقال محمد بن بشر في الإنفاق على جمع الكتب:

أما لو أعي كل ما أسمع	وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت	لقيل هو العالم المصقع
ولكن نفسي إلى كل شيء	من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت	ولا أنا من جمعه أشبع
ومن يك في دهره هكذا	يكن دهره القهقرى يرجع

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنن في العلوم.

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل ما يصير.

قال المهلب لبنيه في وصيته: يا بَنيَّ لا تقوموا في الأسواق إلا على زراد (يعني صانع الدرع) أو وراق (يعني بائع الكتب وناسخها).

قال أبو الحسن اللؤلؤي: غبرت (أي بقيت) أربعين عاماً ما قلت (من القيلولة) ولا بت إلا والكتاب موضوع على صدري.

قال الشيخ أبو القاسم كتبت إلى أبي القاسم بن أبي العلاء أبياتاً استعير منه شعر عمران بن حطان وضمنتها أبياتاً لبعض من امتنع من أعارة الكتب إلا بالرهن وأبياتاً عارضها بها أبو علي بن أبي العلاء في مناقضته، فقلت:

ياذا الذي بفضله	أضحى الورى مفتخره
أصبحت يدعوني إلى	شعر ابن حطان شره
فليعطنيه منعماً	عارية لا شكره
مقتفياً والده	البس ثوب المغفره
عارض من أنشده	إذ رام منه دفتره

هذا كتاب حسن ... قدمت فيه المعذره
حلفت بالله الذي ... أطلب منه المغفره
أن لا أعير أحداً ... إلا بأخذ التذكره
بنكتة لطيفة ... أبلغ منها لم أره
فقال والقول الذي ... قد قاله وحبره
من لم يعر دفتره ... ضاقت عليه المعذره

يقبح في الذكر وفي السماع أخذ التذكره

ما قال ذاك الشعر إلا ماضغ للعذره

فامنن به مصطفياً ... سلوك طرق البربره

فأجابه بأبيات منها:

لا أقبل الرهن ولا ... تذكر عندي تذكره
ولو حوت كفي بها ... فضل الرضا والمغفره
كان لشيخي مذهب ... من مذهبي أن أهجره
خالفت فيه رسمه ... معتفياً ما أثره
ولو أتاني والدي ... من بيته في المقبره
يروم سطراً لم يجد ... ما رامه وسطره

أثار ابن حزم عداء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية فطارده وهدم دوره وصادر أمواله وأملاكه وأحرق كتبه بإشبيلية علانية. فلما بلغه ما فعله المعتضد بن عباد بكتبه قال:

دعوني من إحراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

ذكر ابن الطقطقي في كتابه «الفخري» أن أحد الخلفاء أرسل في طلب بعض العلماء ليسامره، فلما جاء الخادم إليه وجده جالساً وحوله كتب يطالع فيها. فقال له إن أمير المؤمنين يستدعيك. قال: قل له عندي قوم من الحكماء أحادثهم فإذا فرغت منهم حضرت. فلما عاد الخادم إلى الخليفة

وأخبره بذلك قال له ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟ قال: يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد. قال: احضره الساعة كيف كان فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟ قال يا أمير المؤمنين:

لنا جلساء ما نمل حديثهم أمينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فإن قلت أموات فلم تعد أمرهم وإن قلت أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب ولم ينكر عليه تأخره.

أكل أبو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الإبريق وصب عليهما والرجل لا يعلم، فقال له: أتدري من يصب الماء على يديك؟ قال: لا، قال: أنا، قال: أنت يا أمير المؤمنين قال: نعم إجلالاً للعلم.

يروى عن صاعد بن الحسن بن عيسى المعروف بأبي العلاء أنه بعد أن انتهى من تأليف كتاب «النصوص في الآداب والأشعار والأخبار» باسم المنصور ابن أبي عامر دفعه لغلام له يحمله بين يديه. وعبر الغلام نهر قرطبة فزلقت قدمه فسقط في النهر هو والكتاب، فقال في ذلك ابن العريف وكان بينه وبين أبي العلاء شحناء ومناظرات:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً وإنما قال على البديهة مجيباً لابن العريف:

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص

كان لأبي بكر الصولي خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة ورتبها فيها أجمل ترتيب، وكان يقول لأصحابه: كل ما في هذه الخزانة سماعي. وإذا أراد مراجعة كتاب منها قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني، فسمعه يوماً أبو سعيد العقيلي يقول ذلك فأنشد:

إنما الصولي شيخ أعلم الناس خزانه

إن سـألـنـاه بـعـلـم   فـابـتـغـى عـنـه الإبـانـه
قـال يـا غـلـمـان هـاتـوا   رزمـة الـعـلـم فـلانـه

قال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك. فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره.

بعث قاضي قزوين الملقب بالعميدي بمجموعة كتب هدية منه إلى الصاحب بن عباد وكتب معها هذين البيتين:

العميدي عبد كافي الكفاة وإنه   أعـقـل فـي وجـوه الـقـضـاة
خدم المجلس الرفيع بكتب   منعمات من حسنها مترعات

فلما وصلت الكتب إلى الصاحب أخذ منها كتاباً واحداً ورد باقيها وكتب تحت البيتين السالفين:

قد قبلنا من الجميع كتاباً   ورددنا لوقتها الباقيات
لست استعظم الكثير وطبعي   قول خذ ليس مذهبي قل هات

كتب كسرى إلى بزر جمهر وهو في الحبس: كانت ثمرة علمك أن صرت بها أهلاً للحبس والقتل فكتب إليه بزر جمهر: أما ما كان معي الجَدُّ فقد كنت أنتفع بثمرة العلم فالآن إذ لا جَدَّ فقد صرت أنتفع بثمرة الصبر مع أني إن كنت فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير الشر.

قال المسيح عليه السلام: إن أبغض العلماء إلى الله رجل يحب الذكر بالمغيب، ويوسع له في المجالس، ويدعى إلى الطعام، وتفرغ له المزاود، بحق أقول لكم: إن أولئك قد أخذوا أجورهم في الدنيا، وإن الله يضاعف لهم العذاب يوم القيامة.

قيل لأبي نواس: قد بعثوا إلى أبي عبيدة والأصمعي ليجمع بينهما، فقال: أما أبو عبيدة فإن أمكنوه من شعره قرأ عليهم أساطير الأولين، وأما الأصمعي فبلبل في قفص يطربهم بنغماته.

قيل لسقراط: أما تخاف على عينيك من إدامة النظر في الكتب؟ فقال: إذا سلمت البصيرة لم أحفل بسقام البصر.

عن سفيان الثوري: من بخل بالعلم ابتلى بإحدى ثلاث: أن ينساه، أو يموت فلا ينتفع به، أو تذهب كتبه.

روى المقري عن الحضرمي: قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ فوق حده. فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي. قال فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده. فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم من الرزق فهو كثير. قال الحضرمي فأحرجني وحملني على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك يعطى الجوز من لا أسنان له.

قال بعض الأولين: خير العلم ما إذا غرقت بسفينتك سبح معك.

ويقال التفقه على غير علم كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح.

قل ابن المقفع: القلم بريد القلب يخب بالخبر وينظر بلا صبر.

وقال ابن المستنير وقد سئل عن خط وزير ليس بالجيد فقال: رأيت حظه أحسن من خطه.

وقيل لبعضهم كيف ترى إبراهيم الصولي فقال:

يولد اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب

كتب رجل لصاحبه كتاباً دقيقاً فقال ما خاطبتني ولكن عوذتني، فأنشد قائلاً:

كتبت إليكم أشتكي حرقة الهوى ... بخط ضعيف والخطوط فنون
فقال خليلي ما لخطك هكذا ... دقيقاً ضئيلاً ما يكاد يبين
فقلت حكاني في نحول ودقة ... كذاك خطوط العاشقين تكون

وصف أحمد بن صالح جارية كاتبة فقال: كأنّ خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأنّ قرطاسها سهام أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بيانها سحر مقلتها، وكأن سكينها سيف لحظها، وكأنّ مقطها قلب عاشقها. وفي هذا المعنى قال القصار شعراً يصف جارية كاتبة اسمها علم:

أفدي البنان وحسن الخط من علم	إذا تقمعن بالحنا والكتم
حتى إذا قابلت قرطاسها يدها	ترى ثلاثة أقلام على قلم

كتب ابن طباطبا إلى ابن أبي البغل وبعث إليه قلماً أسوداً وآخر أبيضاً وسبعة سمراً:

هذا ابن سام وبنت حام	شعبهما اليوم ذو التئام
قد أظهرا في الورى ازدواجاً	فامتزج النور بالظلام
وأنسلا صبية صغاراً	سبعاً يوافين في نظام
هن مدى الدهر مرضعات	يشتقن ريا إلى الفطام

قال بعض الأدباء: بالحبر تنصاغ حكم الأخبار وبسواده تتضح شبه الآثار. وقيل لوراق أخف رداءة خطك بجودة حبرك. وقيل عطروا كتب علومكم بالحبر فالحبر غالية والكتاب غانية.

قال سعيد بن العاص: من لم يكتب فيمنه يسرى. وقال معن بن زائدة: إذا لم تكتب اليد فهي رجل. وبالغ أبو عبد الله مكحول بن زيد فقال: لا دية ليد لا تكتب.

ذكر علماء التاريخ أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزيز، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام، وسليمان بن دادو كان يكتب لأبيه، وآصف بن برخيا ويوسف بن عنقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام.

تقول ملوك فارس: الكُتّاب نظام الأمور وجمال الملك، وبهاء السلطان وخزان أمواله، والأمناء على رعيته وبلاده، وهم أولى الناس بالحباء والكرامة، وأحقهم بمحبة السلام.

قال العتابي: ببكاء الأقلام تبتسم الكتب.

قال أفلاطون: الخط عقال العقل.

قال ابن أبي داود: القلم سفر العقل ورسوله ولسانه الأطول وترجمانه الأفضل.

قال عبيد الله بن العباس بن الحسن العلوي: الخط لسان اليد.

وقيل الخط إحدى البلاغتين.

وقال الإمام علي عليه السلام: الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً.

رفع رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر قصة يعتذر فيها فرأى خطه رديئاً فوقّع: قد أردنا قبول عذرك فاقتطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجة ويمكن له درك البغية.

قال أبو حاتم وهو وراق من نيسابور يندب حظه في هذه المهنة:

إن الوراقة مهنة مذمومة — محرومة عيشي بها زمن
إن عشت عشت وليس لي أكل — أو مت مت وليس لي كفن

وقال أبو محمد عبد الله بن محمد البكري الأندلس يصف الوراقة بقوله:

أما الوراقة فهي أنكد حرفة — أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب إبرة — تكسو العراة وجسمها عريان

ومن بديع ما وصف به الوراق ما أخبر به أبو هفّان قال: سألت وراقاً عن حاله فقال: عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، وحظي أخف من شق القلم، ويدي أضعف من قصبه، وطعامي أمر من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ.

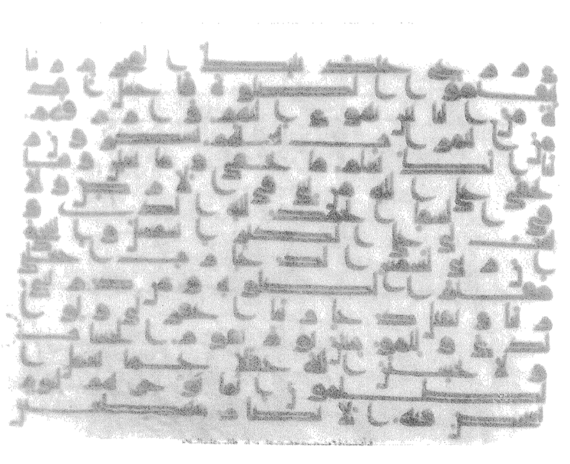
ذكر المسعودي فضل الكتاب بقوله: قالت الحكماء: الكتاب نعم الجليس، ونعم الذخر، إن شئت ألهتك نوادره، وأضحكتك بوادره، وإن

شئت أشجتك مواعظه، وإن شئت تعجبت من [غرائب] فوائده، وهو يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر [والشاهد والغائب] والبادي والحاضر والشكل وخلافه، والجنس وضده، وهو ميت ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، وهو مؤنس ينشط بنشاطك، وينام بنومك ولا ينطق [معك] إلا بما تهوى... وهو المعلم الذي لا يجفوك، وإن قطعت عنه المائدة، لم يقطع عنك الفائدة. وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب:

لما علمت بأني لست أعجزهم ... فوتاً ولا هرباً قدمت أحتجب
فصرت بالبيت مسروراً به جذلاً ... حاوى البراءة لا شكوى ولا شغب
فرداً يحدثني حقاً وينطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب
المؤنسون هم اللائي عنيت بهم ... فليس لي في جلس غيرهم أرب
لله در جليسي لا جليسهم ... فذا غشيرهم للسوء يرتقب

الفصل الثامن

صور
لبعض الكتب والمخطوطات
الإسلامية القديمة



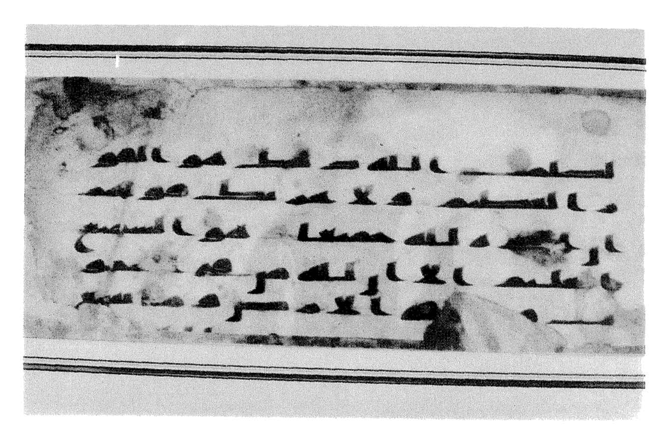
صفحة نادرة من مخطوط قرآني بالخط الكوفي منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب

مكان المخطوطة: المكتبة المركزية للروضة الرضوية المقدسة بإيران

صفحة من مخطوط قرآني بالخط الكوفي

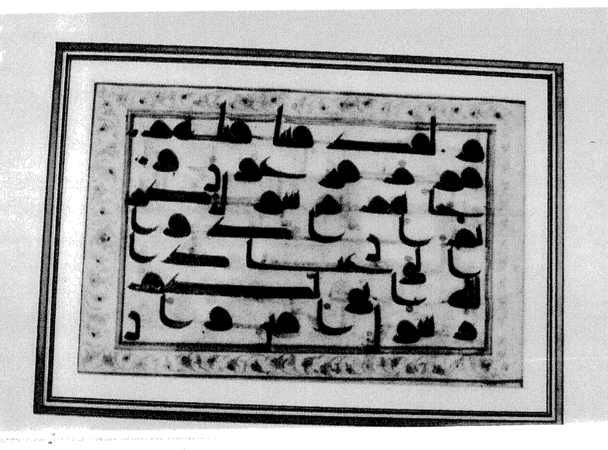
الكاتب: العباس بن محمد بن العباس القزويني (٣٨٧ هـ ق)

مكان المخطوطة: المكتبة المركزية للروضة الرضوية المقدسة بإيران



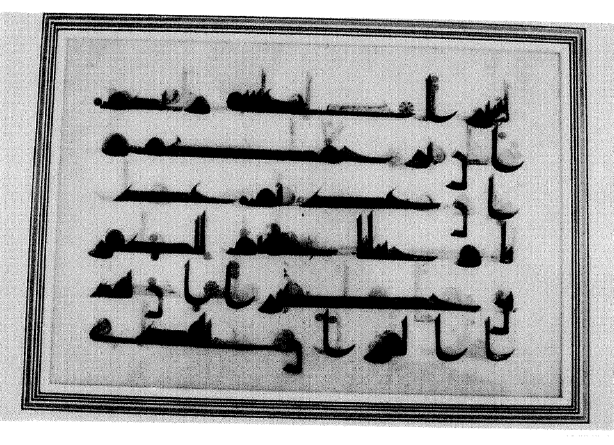
كتبت هذه الصفحة على الرق بخط كوفي بدائي يعتقد أن خط هذه الصفحة هو البداية للكتابة الكوفية وهو بسيط هادىء بدائي يدل على المرحلة الأولى من الكتابة الكوفية. ويرجع تاريخ هذه الصفحة إلى القرن الأول الهجري وهي بدون إعجام أو إعراب أو أي تحلية جمالية وتعتبر من المخطوطات النادرة.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين



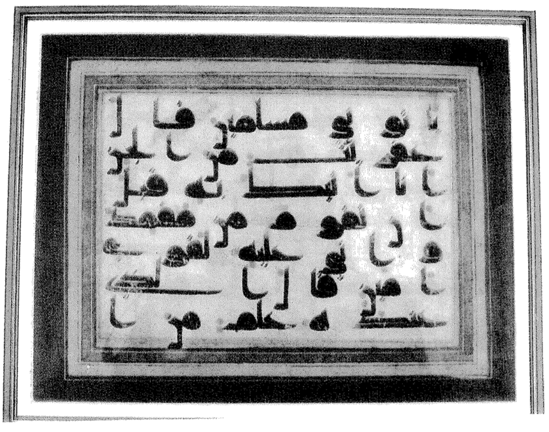
تحلية جمالية من أوراق نباتية مذهبة أضيفت فيما بعد في إطار الصفحة بالهند مع برواز مكون من خطوط زرقاء وحمراء وذهبية حول الكتابة. مخطوط يرجع للقرن الثالث الهجرب كتب على الرق في العراق في الأصل ثم انتقل إلى الهند أو إيران بعد ذلك حيث أدخلت التحلية الجمالية.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.



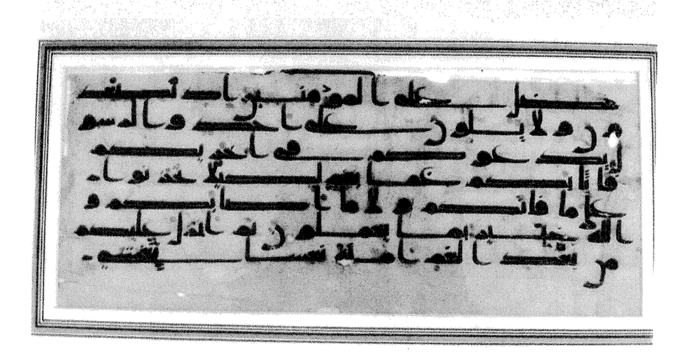
صفحة نادرة من مخطوط قرآني بالخط الكوفي المجوّد كتب على الرق المصقول بالمداد الأسود واستعملت النقاط الحمراء لأعراب الكلمات، يرجع تاريخ هذه الصفحة إلى القرن الثالث الهجري وقد كتبت في العراق أو بلاد العجم.

مكان المخطوطة: بيت القرآن - البحرين



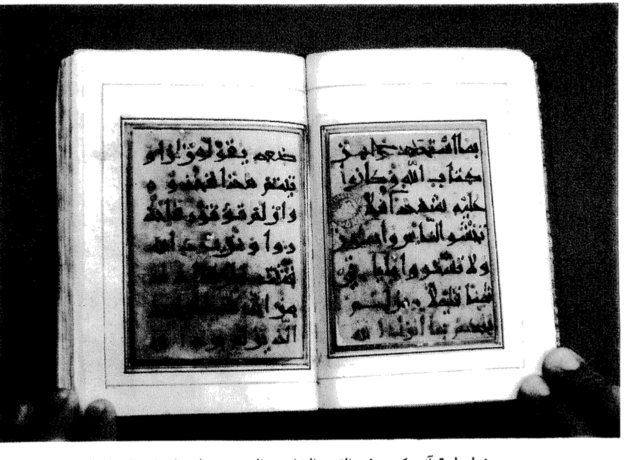
صفحة نادرة من مخطوط قرآني كتب على الرق المصقول بالخط الكوفي المتميز وقد تركت فراغات متساوية بين الأحرف والكلمات بطريقة متناسقة متجانسة. ويتبين من هذا المخطوط أن الإعجام قد أدخل على الحروف أثناء كتابة المخطوط بشكل خطوط صغيرة مائلة، لفك إعجام الحرف، والنقاط الحمراء للإعراب، كتبت في الشرق الأدنى ـ (إيران العراق في أواخر القرن الثالث الهجري.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.



صفحة نادرة من مخطوط قرآني كتب على الرق بالخط الكوفي المغربي المطور المجود وأدخلت عليها النقاط الحمراء للأعراب والخطوط المائلة الصغيرة لفك إعجام الأحرف. وهذه الصفحة من أوائل المخطوطات التي تحولت فيما بعد الخطوط المائلة الصغيرة فيها إلى نقاط لتميز الحروف العربية المتشابهة. يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الهجري وقد كتب في القيروان (تونس) شمال إفريقيا.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.



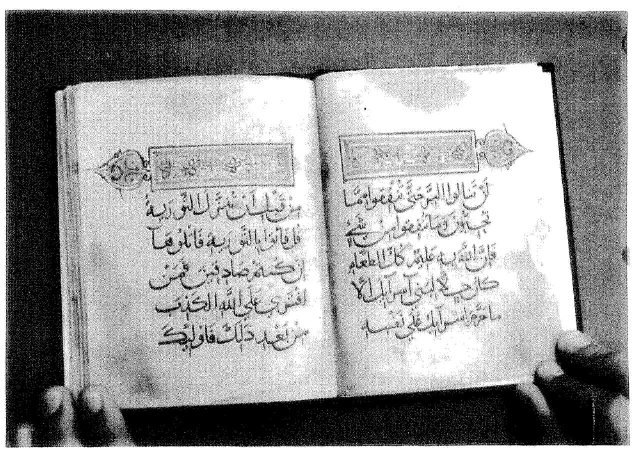
جزء من مخطوط قرآني كتب في القرن الخامس الهجري على الورق بالخط الكوفي المشرقي بخط جميل متناسق متجانس وقد استعملت النقاط الحمراء للأعراب والنقاط السوداء لفك إعجام الحرف وقد كتب في الشرق الأدنى.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.



صفحة مخطوطة من جزء متكامل من المصحف الكريم كتب بالخط الكوفي المشرقي المطور المجود وأدخلت عليه التحلية الجمالية الذهبية في بداية السور، كما أدخلت الجانبية لفواصل الآيات وكتب لفظ الجلالة بالذهب وزمكت جوانب حروفه بالحبر الأحمر واستعملت النقاط الحمراء للدلالة على الإعراب والنقاط السوداء لفك إعجام الأحرف وهي بنفس مداد الكتابة. ويعتبر هذا المخطوط من المخطوطات القرآنية النادرة ويوجد مثيل له في مكتبة تشستر بيتي في إيرلنده والمتحق البريطاني والمكتبة الوطنية بفينا في النمسا ومكتبة طوب كابو في اسطنبول بتركيا. كتب ببلاد فارس في القرن الخامس الهجري على يد أستاذ متخصص في الخط القرآني.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين


لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما
تحبون وما تنفقوا من شيء
فإن الله به عليم كل الطعام
كان حلا لبني إسرائيل إلا
ما حرم إسرائيل على نفسه

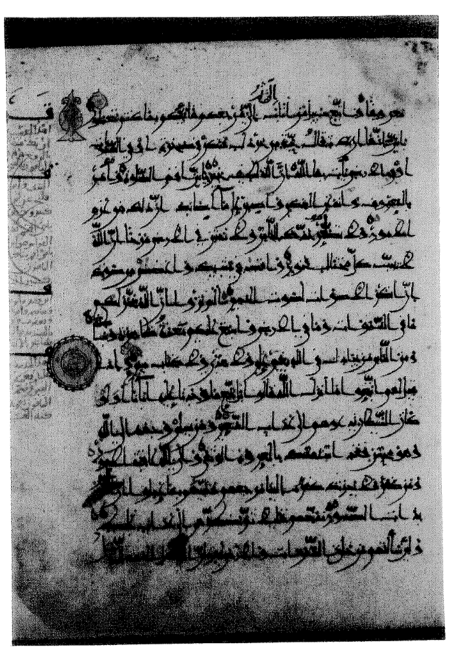
من قبل أن تنزل التوراة
قل فأتوا بالتوراة فاتلوها
إن كنتم صادقين فمن
افترى على الله الكذب
من بعد ذلك فأولئك

جزء من مخطوط قرآني كريم كتب في القرن الخامس الهجري على الورق بخط النسخ وأدخلت التحلية الجالبة المكونة من الألوان الزاهية الممزوجة بالذهب ويلاحظ أن المخطوط كتب بالمداد الأسود وكذلك الإعراب والنقاط.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.

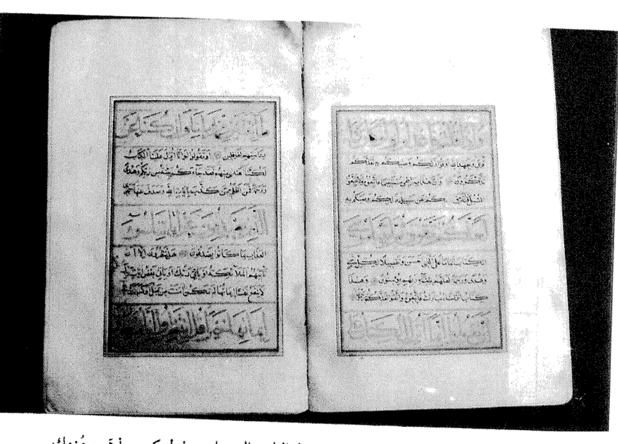
صفحة من مخطوط قرآني بحجم كبير كتب على الورق بالخط الكوفي المجود، استعملت النقاط الحمراء للدلالة على الإعراب، أما النقاط السوداء المكونة من نفس المداد المستعمل في الكتابة فقد استخدمت لفك الرموز وتمييز الحروف، كما استعملت حليات صغيرة مذهبة عند فواصل الآيات. وتعتبر هذه الصفحة من الصفحات الأولى للمخطوطات القرآنية التي كتبت على الورق بعد إدخال صناعته إلى العالم الإسلامي. كتب في العراق في القرن الخامس الهجري.

مكان المخطوطة: بيت القرآن - البحرين.



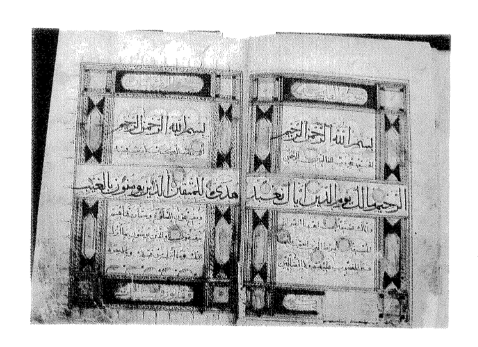
صفحة من مخطوط قرآني بحجم كبير كتب على الورق بالخط الكوفي المجود، استعملت النقاط الحمراء للدلالة على الإعراب، أما النقاط السوداء المكونة من نفس المداد المستعمل في الكتابة فقد استخدمت لفك الرموز وتمييز الحروف، كما استعملت حليات صغيرة مذهبة عند فواصل الآيات. وتعتبر هذه الصفحة من الصفحات الأولى للمخطوطات القرآنية التي كتبت على الورق بعد إدخال صناعته إلى العالم الإسلامي.. كتب في العراق في القرن الخامس الهجري.

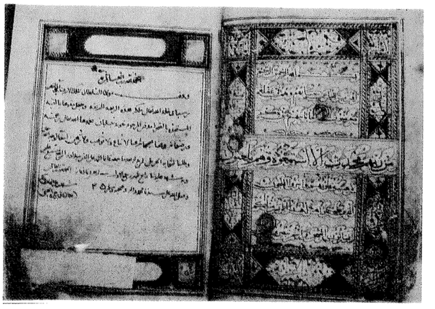
مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.



جزء من مخطوط قرآني كريم كتب بخط الثلث الجميل وبخط كبير مذهّب مُزملك في السطر الأول والوسط والأخير، أما الآيات الكريمة التي تتوسط خط الثلث فقط تكونت من ثلاثة أسطر كتبت بخط النسخ الجميل المتجانس، يرجع تاريخ المخطوط إلى القرن السابع الهجري ويعتقد أنه كتب في مصر.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.





«الربعة الشريفة» من القرآن الكريم كتبت على الورق لتوضع في مقرها الدائم «بالقبة المستجدة بالصحراء وقد أوقفها السلطان الملك الأشرف أبو النصر رسباي «خلد الله ملكه» لوضعها في مدفن المرحومة خوند جلبار وقد كتبت في شهر ربيع الأول سنة أربعة وثمانمائة.

مكان المخطوطة: بيت القرآن ـ البحرين.

تقويم عصر الجاهلية إلى فتح مكة

إعـداد

الأديب الشاعر الأستاذ إبراهيم العريض

الفصل	البرج*	عدد أيامه	دخوله بالميلادي	أشهر مكية	رحلة الشتاء والصيف
الربيع	الحمل	٣١	٣/١٠	رجب*	رحلة الشتاء إلى عمان
	الثور	٣٠	٤/١٠	شعبان	
	الجوزاء	٣١	٥/١٠	رمضان	
الصيف	السرطان	٣٠	٦/١٠	شوال	
	الليث	٣٢	٧/١٠	ذو القعدة*	رحلة الصيف
	السبنلة	٣٣	٨/١٠	ذو الحجة*	إلى
الخريف	الميزان	٣٠	٩/١٣	محرم*	دمشق
	العقرب	٣٠	١٠/١٣	صفر	
	القوس	٢٨	١١/١٢	ربيع الأول	
الشتاء	الجدي	٣٠	١٢/١٠	ربيع الثاني	
	الدلو	٣٠	١/٩	جمادي الأولى	
	الحوت	٣٠	٢/٨	جمادي الثانية	

* الأشهر الحرم

* البروج تتأخر عن مواعيدها الآن قرابة شهر.

المصادر

١ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون. ـ ط ٣. ـ القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت. جـ ٣.

٢ ـ ابن النديم، محمد بن إسحاق. الفهرست تحقيق ناهد عباس عثمان. ـ القاهرة: دار قطري بن الفجاءة، ١٩٨٥.

٣ ـ الأمين، سيد محسن. معادن الجواهر ونزعة الخواطر. ـ بيروت: دار الزهراء، ١٩٨١. جـ ٣.

٤ ـ بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية. ـ ط. ١. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

٥ ـ بن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد. العقد الفريد تحقيق مفيد محمد قميحة. ـ ط ٣. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧. جـ ٩.

٦ ـ بن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم. عيون الأخبار. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

٧ ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. الحيوان تحقيق يحيى الشامي. ـ بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٦. جـ ٧.

٨ ـ الجزائري، أبو بكر جابر. العلم والعلماء. ـ القاهرة: دار الكتب السلفية، ١٤٠٣ هـ.

٩ ـ حمادة، محمد ماهر. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.

١٠ ـ الخضري بك، محمد. الدولة الأموية. ـ بيروت: مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٩.

١١ ـ الخضري بك، محمد. الدولة العباسية. بيروت: مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٩.

١٢ ـ ديوان، محمد رستم. المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط ترجمة يوسف داود عبد القادر. ـ مج ٩، ع ٤ (١٩٨١). ـ ص ٢٨٤.

١٣ ـ ديورانت، ول. قصة الحضارة. ـ بيروت: دار الجيل للطبع والنشر، ١٩٨٨. جـ ٤٢.

١٤ ـ الراغب الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. ـ مصر: المطبعة العامرية الشرقية، ١٣٢٦ هـ. ٢ جـ.

١٥ ـ زريق، معروف. موسوعة الخطوط العربية وزخارفها. ـ دمشق: دار المعرفة، ١٩٩٣.

١٦ ـ زيادة، نقولا. قمم من الفكر العربي الإسلامي. ـ بيروت: الأهلية للشر والتوزيع، ١٩٨٧.

١٧ ـ زيدان، جورجي. تاريخ التمدن الإسلامي. ـ بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧. جـ ٣.

١٨ ـ ستيبتشفيتش، الكسندر. تاريخ الكتاب ترجمة محمد الأرناؤوط. ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣. جـ ٢.

١٩ ـ سرحان، منصور محمد. الكتاب والمكتبات. ـ البحرين: وزارة الإعلام، ١٩٨٣.

٢٠ ـ سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي. ـ ط ٢. ـ قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، ١٩٨٣، ١٢ جـ.

٢١ ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين. تاريخ الخلفاء. ـ حلب: دار القلم العربي، ١٩٩١.

٢٢ ـ الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. ديوان الإمام الشافعي. ـ القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، (١٩٨٤).

٢٣ ـ شرف الدين، عبد التواب. الموسوعة العربية في الوثائق والمكتبات. ـ قطر: دار الثقافة، ١٩٨٦.

٢٤ ـ شيخاني، سمير. صانعو التاريخ. ـ بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٩٨٧. جـ ٢.

٢٥ ـ الصوفي، عبد اللطيف. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات. ـ دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧.

٢٦ ـ الطريحي، محمد سعيد. خزائن الكتب الإسلامية القديمة في الكوفة. ـ مج ٩، ع ٤ (١٩٨١). ـ ص ٢٩٢.

٢٧ ـ عليان، ربحي مصطفى. الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. ـ البحرين: بيت القرآن، ١٩٩٦.

٢٨ ـ
عطا الله، رشيد يوسف. تاريخ الآداب العربية تحقيق علي نجيب عطوي. ـ بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٩٨٥. جـ ٢.

٢٩ ـ قزنجي، فؤاد. المكتبات والصناعة المكتبية في العراق. ـ بغداد: مطبعة الجمهورية، ١٩٧٢.

٣٠ ـ القلقشندي، أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧. جـ ١٤.

٣١ ـ كمال الدين، جليل. المكونات الأولى للثقافة العربية. مج ٩، ع ٢ (١٩٨٠). ـ ص ٤٧٠.

٣٢ ـ المحامي، محمد كامل حسن. عباقرة خالدون. ـ بيروت: المكتب العلمي، ١٩٨٨. جـ ٧.

٣٣ ـ مرحبا، محمد عبد الرحمن. أصالة الفكر العربي. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٢.

٣٤ ـ المسعوي، أبو الحسن علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣. جـ ٤.

٣٥ ـ هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة. ـ ط ٢. ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٦.

المحتويات

رقم الإيداع بالمكتبة العامة بالمنامة ٢١٠٤ د.ع/١٩٩٧

يسعد مكتبة فخراوي للطباعة والنشر والتوزيع وهي تنتقي كعادتها نشر الكتب التي تحمل بين صفحاتها المعلومات القيمة والمفيدة للقراء، أن تنشر هذا الكتاب لواحد من المتخصصين البارزين في مجال المكتبات والمعلومات. فالأستاذ منصور محمد سرحان عرف بنتاجه الفكري المتميز في مجال المكتبات والمعلومات، كما أن له اهتماماته الخاصة برصد الحركة الثقافية والفكرية في البحرين.

وقد اختار المؤلف موضوع المكتبات في العصور الإسلامية محدداً الفترة الزمنية التي جمعت فيها مادة بحثه بنهاية القرن السابع الهجري. وتمثل هذه الدراسة أهمية خاصة للباحثين والدراسين والمتخصصين في مجال المكتبات والمعلومات.

ويتناول الكتاب في فصوله الثمانية مواضيع ذات أهمية خاصة بالنسبة لحركة المكتبات في العصور الاسلامية المتقدمة. وقد بدأ الكتاب بالتعريف بالمكتبات في العالم القديم، ثم تناول المكتبات الرئيسية العامة والمركزية، ومكتبات المساجد، والمدارس والمكتبات الخاصة في العصر العباسي والفاطمي والاندلسي. وضم الكتاب مواضيع ذات صلة بالمكتبات الاسلامية كالوراقة وازدهار حركة الكتابة والتأليف في الفترة الواقعة ما بين القرن الأول والسابع الهجري.

من هنا تأتي أهمية هذا العمل المتميز في مجال المكتبات والذي أرجو أن تتم الاستفادة منه في تثقيف النفس، وأن يكون أحد المصادر الهـ[illegible] في توثيق الحركة الفكرية والثقافية في عالمنا الاسلامي.



النا[illegible]